
أحمد رمضان
انتحار فاشل
قصص

انتحار فاشل

(مجموعة قصصية)

احمد رمضان

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
انتحار فاشل
المؤلف:
احمد رمضان
★ ★ ★
الغلاف:
محمد محمود
★ ★ ★
الإشراف العام:
محمد سامي
★ ★ ★

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

احمد رمضان

انتحار فاشل



المجرم

عدت من عملى متأخراً .. أشتريت بعـض الأغـراض قبـل أن أقـترب مـن الحارة التى أسكن فيهـا .. تفاجئـت بـسيارة شـرطة تـسد مـدخل الحـارة .. أنتشر حولها بعض العساكر لمنع الأهالى مـن التقـدم .. خلـف الحـاجز الـذى صنعه الجنود وقف كثير من الأهـالى يتطلعـون بفـضول و تـساؤل .. حاولـت المرور موضحاً لهم أنى من قاطنى الحارة و لكنهم منعـونى بحـزم .. قـالوا أن الأمر لن يستغرق سوى دقائق .. لم أجد مفراً من الأندسـاس بـين الـواقفين .. تلك ليست أول مرة يحدث فيها هذا الموقف .. يتكرر كل فـترة حـين يـأتون للقبض على شخص ما .. و عادة لا يستغرق الأمر وقتاً

قتلنى الفضول كما قتل القطة من قبل لمعرفة هدفهم هذه المرة .. خاصة أن معظم السكان لم يكونـوا علـى علـم بالـضحية – أو المجـرم – الـذين يـسعون خلفه .. و العـساكر البـسطاء لم يكـن لـديهم أدنـى فكـرة ، و لم نـستطع أن نستخرج منهم أى معلومة حتى بعـد أن منحنـاهم بعـض الـسجائر و تقربنـا منهم فى الكلام

من المؤكد أنهم جاءوا للقبض على زاهر السياب .. ورث عن أبيـه تجـارة المخدرات و لكنه لم يرث عنه حرصه أو ذكائه .. لم تستطع الـشرطة القـبض على أبيه يوماً رغم نشاطه المعـروف الـذى أمتـد لـسنوات .. زاهـر مغـرور و جرئ أكثر من اللازم .. والده كان يعمل فى الخفـاء و بحـرص أكـبر .. علـى عكس أبيه يتباهى زاهر بنفوذه بعد أن بسط سيطرته على المنطقة .. دخل فى صراعات كثيرة .. أكتسب العديد من الأعداء .. بعضهم من ذوى النفوذ .. من المؤكد أن أحدهم وشى به .. تمنيت أن يكون هو .. على الأقل تتخلص الحارة من أجرامه و نفـوذ أتباعـه .. و لكـن صـعب أن يكـون هـو .. رغـم غـروره و أخطائه الكثيرة لكنه ليس بتلك السذاجة ليخزن بضاعته فى منزله أو دكانـه فى الحارة .. أعلم بالتأكيد أنه يحتفظ بها فى مخازن بعيدة و يجيد تصريفها بعيداً عن مكان أقامته ، و عن محل الأقمشة الكبير الذى يتخذه كستار لـه .. كما أنه مسافر منذ ثلاثة أيام .. أزدادت حيرتى .. من يكون أذن

سمعت أسم عادل يسرى همـساً بـين النـاس .. هـل جـاءوا للقـبض علـى عادل .. أعترف أنى أحسست بقليل من الشماتة .. يمتلك عادل محل أجهزة كهربائية فى نهاية الحارة .. بدأ طريقه الخاص بشراء الأجهزة المسروقة ثم أعادة بيعها .. بعدها أصبح يتاجر فى كل شئ .. مـسروق طبعـاً .. ذهـب .. ساعات .. هواتف نقالة .. أدوات زينة .. ذمته أصـبحت تتـسع لأى بـضاعة

مجهولة المصدر .. شهرته بدأت بالتعرف على عزمى .. أشهر هجام فى المنطقة و أكثرهم خطورة .. يشترى منه كل ما تطوله يده فى مغامراته الليلية .. ثم بدأ يوسع علاقاته .. تعرف على مزيد ممن أشتهروا بالقلوب الجريئة و الأيدى الطويلة .. من النادر أن تجد لص منازل أو نشال فى المنطقة لا يعرف عادل .. أحتفظ بالمحل القديم كما هو دون تغيير درءاً للأنظار و لم يغادر الحارة .. قام بتوسعة بيته القديم و صرف عليه الكثير .. من دخل بيته يحكى عن فخامته من الداخل .. و أولاده نقلهم من المدرسة القريبة المتهالكة إلى أرقى المدارس الخاصة .. يحتفظ بأمواله كلها داخل بيته و لا يضعها بالبنك .. وقفت على أطراف أصابع قدمى و توجهت ببصرى نحو محله فى آخر الحارة .. لاحظت أنه مفتوح .. رأيت بعض العساكر متمركزون فى وسط الحارة بعيداً عنه .. من المستحيل أن يكون هو .. تأكدت ظنونى بعد أن ظهر بعد قليل ليقف أمام محله يستطلع الأمر.. سحب كرسياً من الداخل و جلس أمام محله بهدوء .. هززت رأسى فى أسف .. شعرت بقليل من خيبة الأمل

عصرت ذهنى .. بحثت كثيراً فى تاريخ حارتى الأسود .. أستعرضت الأسماء فقفز إلى ذهنى أسم منها .. أعلم أن لو تفتح عمل الشيطان .. و لكن لو كان هو .. لأقمت حفلاً فى الحارة .. عزمى المجاهد بالتأكيد .. أعتقد أنى

لست الوحيد الذى سيحتفل بالتخلص منه .. لم يجتمع أهل الحارة منذ نشأتها على شئ أكثر من أجماعهم على بغض عزمى المجاهد و تمنى الخلاص منه .. أجرامه فاق كل حدود .. مسجل خطر .. دخل السجن عدة مرات و لكنه كان يخرج منه سريعاً .. آخر مرة دخل السجن لشهرين .. ظننا أننا تخلصنا منه .. وزع بعض الأهالى الشربات أبتهاجاً بالمناسبة .. من سوء حظنا أن الأنتخابات كانت قريبة .. أخلوا سبيله قبلها بأيام .. نجح مرشح الحكومة الذى سانده بالطبع و أختفى منافسه بعدها بفترة .. عزمى مجرم صعب أن تصنفه ، و هنا مكمن خطورته .. لو أستطاع الأكتفاء بنشاط واحد ربما عشنا معه بسلام .. متعدد المواهب حقاً .. هجام .. بلطجى .. نصاب .. موزع مخدرات .. قاتل .. موسوعة أجرام حية زاخرة تعيش و تتنفس بيننا .. بدأ حياته بالسطو على المنازل .. و عندما بدأت أعصابه تخذله بعد أن عرف طريق الأدمان .. بحث عن طريق أسهل .. الخطف .. أشترى دراجة و بدأ فى أستخدامها هو و أحد أعوانه فى خطف حقائب السيدات و أحياناً مصاغهم .. ثم تعلم حمل السلاح و بدأ الخروج ليلاً للبحث عن ضحية منكوبة و تهديدها لأفراغه من كل ثمين يحمله .. أفراطه فى المخدرات دفعه للمتاجرة بها أحياناً .. ثم القيام بدور البلطجى لمصلحة من يدفع له أكثر .. راقت له اللعبة ففرض أتاوة شهرية على كل أصحاب

المحلات .. ثم أصحاب البيوت .. جمع عصابة من الأوباش مثله فلم يستطع أهل الحارة مواجهته .. يستخدم أسلحته بخبرة جراح ماهر .. من يعارضه يحمل تذكاراً خالداً فى وجهه أو جسمه حتى لا ينساه .. و لا بأس من وقت لآخر بجريمة قتل حتى يذكر الناس بسطوته .. دعوت المولى أن يكون هو حقاً .. من المؤكد أن كل هذه القوة جاءت للقبض عليه أحتياطاً لخطورته .. أسترحت لهذا الخاطر للحظات .. حتى تفاجئت بعزمى نفسه يقف ورائى .. لو تطلع إلى للحظة لرأى آثار الدهشة بوضوح على وجهى .. لم يفعل لحسن حظى .. أندس بين الواقفين ببساطة يسأل عن الخبر

شلت رؤية عزمى تفكيرى للحظات .. عدت لأستعراض الصور و مراجعة الأحتمالات بحيرة أكبر .. هل جاءوا للقبض على أمين صاحب المخبز الوحيد فى الحارة الذى يقوم بتهريب الدقيق المدعم تحت أعين الجميع لبيعه فى السوق السوداء .. أم محسن الميكانيكى هو الهدف بعد أن أشتكاه أحد زبائنه .. كلنا نعرف مهارته فى سرقة قطع الغيار الأصلية للسيارات التى يقوم بأصلاحها و أستبدالها بأخرى تجارية رخيصة .. هل الدور على زيزى الراقصة بعد أن فاحت رائحة زبائن آخر الليل لديها .. ربما عباس صاحب القهوة الذى يوصد أبوابها من الداخل ليلاً لتتحول إلى غرزة لتدخين الحشيش .. أحسست بدوار .. بدأت يدى تؤلمنى من حمل الأغراض التى

أشتريتها لفترة طويلة .. اللعنة .. أعيانى التفكير .. لماذا أشغل نفسى كثيراً بمعرفة الأسم .. يد العدالة ستطول أحد اليوم على كل حال و ستتخلص الحارة من أحد أوباش قاطنيها .. و هذا هو ما يهمنى .. صحيح أنى صدمت لعدم القبض على عزمى .. و لكن لكل كلب يومه .. و ربما أسترحنا ممن هو أخطر منه

لحظات صمت مرت ثقيلة على الجميع قبل أن نرى حركة فى الشارع .. أعتدل العساكر المرابضون فى وسط الحارة .. هبط بعض الجنود من أحد البيوت هناك .. أثنان منهم يمسكون شخص ما بأحكام .. لم نتعرف على ملامحه من الأجساد التى كانت تعيق رؤيتنا و لكنهم كانوا يمسكونه بشكل يوحى بمدى خطورته .. بعدها بثوان هبط شخص ثان و ثالث بنفس الطريقة .. قبضوا على ثلاثة أذن .. تمنيت أن يقبضوا على مجرم واحد فقبضوا على ثلاثة دفعة واحدة .. أبتهجت .. أقتربوا منا .. بعد عدة أمتار بان ملامح المقبوض عليه بوضوح .. تحولت نظرات التساؤل إلى دهشة ثم سريعاً إلى أستنكار .. وسط العساكر كان يمشى محمود بأنكسار .. من المؤكد أن هناك خطأ ما .. محمود أبن الحاج حسين موظف الكهرباء .. الكل يشهد بأخلاقه و سمعته الطيبة .. أحد القلائل الذين يسكنون الحارة و يتمتعون بأحترام و ثقة الجميع .. موظف بسيط فى الحكومة أحسن تربية أولاده و

علمهم رغم متاعب الحياة .. لا نـذكره إلا بـالخير هـو و أسـرته البـسيطة .. محمود يدرس فى كلية الحقوق .. شاب ملتزم كمـا نعرفـه .. لم يقـدم يومـاً على فعل خاطئ أو أرتكاب حماقة .. نعلم أنه موهوب و يكتب مقالات أحياناً فى بعض الصحف الصغيرة .. لمحنا الحاج حسين يخـرج مـن المنـزل خلـف أبنه يمنعه الجنود من الوصول إليه .. ثم والدته تلحق بزوجها خارج البيـت رغـم مرضـها وهـى تبكـى أبنهـا الوحيـد .. بـسرعة حـشروهم فـى مـؤخرة السيارة .. شق العساكر طريقاً بين الناس يسمح بمرور السيارة .. لم نعلـم إلا لاحقاً بعدها بأيام أنه متهم بالأخلال بالأمن العام هو و زملائه .. شارك فـى مظاهرة داخل الجامعة و كتب كلاماً جارحاً فى أحد مقالاته .. هكذا قال لنـا محاميه .. و لكنه لم يخبرنا لمن كان الكلام جارحاً .. أنتـهزوا فرصة وجـوده فى منزله هو و أثنان من أصدقائه المشاركين فى المظاهرات للقبض عليهم بعـد أن أبلغ عنهم أحـد المخـبرين المتواجـدين بـصفة دائمـة فـى الحـارة .. أشـعر بمرارة كلما تذكرت هذا المشهد يومها .. سيارة الشرطة تشق طريقها بسرعة بين الناس .. عزمى الهجام يقف خلف سيارة الشرطة المنطلقة بقوة .. يقلـب كفيه فى تعجب .. يتطلع إلى محمود المنزوى فى ركن منهـا هـو و زملائـه .. يعلق بتأثر صائحاً بحكمته الخالدة : صحيح .. الحرام عمره ما يدوم

أستعداد

لاحظ أنها نامت أكثر من المعتاد .. لفت الغطاء على وجهها بينما أحكمت وضع الوسادة فوق رأسها كالعادة فلم يظهر إلا القليل من جسدها الضئيل .. تردد للحظات أن يوقظها قبل موعد تناولها للحقنة اليومية التى أوصى بها الطبيب .. ثم قرر أن يتركها لخمس دقائق أخرى فإن لم تنهض من تلقاء نفسها بادر هو بأيقاظها

ذهب لأعداد كوب من قهوته الصباحية المعتادة .. تناوله ببطء و هو يشاهد النشرة .. سرح مع الأخبار بعد أن أرتفع ضغط دمه كالعادة من مشاهدتها .. عادة سيئة يقسم مراراً أن يقلع عنها و لكنه لا يفعل .. أنتبه إلى أن مهلة الخمس دقائق طالت لتصبح ثلث ساعة .. نهض بسرعة و أتجه إلى غرفتها .. وجد زوجته كما هى لم تتحرك و كأنها أتحدت مع السرير فى كيان واحد مشترك .. تذكر أنها سهرت بالأمس تتألم من نوبة سعال أنتباتها و نامت بصعوبة .. قرر أن يمنحها مهلة ثانية .. مهلة أخيرة ثم

يوقظها قبل خروجه لصرف المعاش

دخـل إلى حجـرة نومهمـا .. منـذ تـزوج الأبنـاء و هـى لا تنـام فيهـا إلا نادراً .. تفضل أن تنام فى غرفة أبنهـا الأكـبر .. دائمـاً تحكـم الغطـاء حـول نفسها بعد أن تقوم بتعديل صورة أبناءها التى تضعها على المنـضدة الـصغيرة بجوار السرير لتصبح فى مواجهتها .. تحججت من فترة طويلـة أن حجـرة نومهما " بحرى " و جسدها الـضعيف لم يعـد يتحمـل برودتهـا فـى الـشتاء خاصة بعد كوكتيل الامـراض الـذى أجتـاح جـسدها مـن سـنوات .. ضـغط .. سكر .. و تصلب شرايين أجرت معه جراحة من شهر مضى ما زالت تتعـافى من آثارهـا .. هـزل جـسمها و ضـعفت قواهـا و لكنهـا بعنـاد تـصر أن تقـوم بدورها .. يعلم أنها تحن لأبناءها الـذى تـزوج آخـرهم مـن شـهران و فـارق عشها بشكل نهائى .. مع المرض و فراق الأبنـاء زادت عـصبيتها فـى الفـترة الأخيرة .. تذكر المشاجرة التى حدثت بينهما أمس .. و لكن الغريـب أنـه لم يعد يتذكر السبب .. سبب مختلف كل مرة و ينتهى الشجار سريعاً .. تثـور عليه ثم تفاجئه بعدها بلحظات و هى تحضر كوب الماء لـه و تـذكره بتنـاول دوائه اليومى .. يعانى هو أيضاً من ضغط الدم و لكـن مـا زالـت معاناتـه أقـل بكثير مقارنة بمعاناتها

أمس أجهدت نفـسها .. دعـت الأولاد علـى الغـداء و صـممت أن تقـوم و

تشرف على كل شئ بنفسها رغم تحذيرات الطبيب .. كانـت عـصبية بـشكل كبير .. هكذا دائماً تزداد عصبيتها عندما تدعو أحـد إلى البيـت .. ترغـب أن يبدو كل شئ فى أبهى صـورة .. بعـد أنـصراف الأبنـاء أضـطر للقيـام بمهـام التنظيف بعد أن شعرت بألم فى قدميها لم تستطع معه أن تـؤدى أى عمـل .. رغم أنه نام قبلها و لكنه أدرك أنها لم تنم إلا قبل الفجر بقليل .. أعتادت أن تستيقظ مبكراً مهما سهرت فما الـذى أخرهـا هكـذا .. أنتابـه خـاطر مـزعج تسلل إلى عقله بخبث .. أقترب من سريرها فلم يلحظ أى حركة تنفس .. قال فى سره : معقول يكون حصل لها حاجة .. دى تبقى كارثة

غادر الحجرة بعـد أن أقلقـه الخـاطر .. أتجـه إلى الـصالة و جلـس علـى الأريكة .. يريد بعض الوقت للتفكير فقدرته على أتخاذ رد فعـل سـريع فـى المواقف الطارئة لم تعد كالـسابق .. لـو حـدث شئ مـا لهـا بالفعـل .. كيـف سيتصرف ؟.. سيحزن على شريكة عمره بالتأكيد و لكنه سـيتمالك نفـسه .. سيطلب الأسعاف فوراً .. و ربما يستعين بـبعض الجـيران .. عليـه أن يبـدو هادئاً أمام الجميع رغم الكارثة .. رزيناً كعادته و كشخص هذبته السنين من فترة و أختبرته بكل أشكال المصائب مراراً .. ماذا عن الأولاد .. من المؤكد أنه سيتصل بكل واحد منهم و لكـن يجـب أن يقـوم بـالأمر بمنتهـى الحكمـة .. سيتصل بالأبن الأكبر أولاً و يطلعه علـى مـا حـدث بهـدوء وبـشكل مباشـر..

سيحدثه بتعقل كرجل مسئول يعتمد عليه و سيخفف هذا بالتأكيد من وقع الصدمة .. أما الأبن الأصغر فمن المؤكد أنه فى العمل الآن .. سيتصل بزوجته و هى ستتولى المهمة عنه .. يعلم أنها أقدر منه على نقل الخبر إليه بطريقتها الخاصة .. المشكله فى أبنته .. عليه أن يكون هادئاً معها للغاية فهو يدرك أنها عاطفية و شخصيتها أنفعالية إلى أبعد حد مثل أمها .. سيبلغها الأمر بالتدريج .. أمك مريضة .. الطبيب هنا .. تريد رؤيتك .. فكر ماذا سيفعل أمام أبنائه عندما يتوافدون إلى المنزل فزعاً .. يعلم مدى تعلقهم بأمهم .. يتخيل تأثير الموقف عليهم .. يراهم بعين خياله مصدومين مما حدث .. عيونهم كساها اللون الأحمر من البكاء و أطرافهم ترتجف من وقع الصدمة .. كبار هم و لكنهم ما زالوا صغاراً أمام المصائب و ربما أنهار أحدهم تحت وطأتها .. يجب أن يبدو أمامهم رابط الجأش مهما كان حزنه و ألمه حتى يهدئ من روعهم .. عليه أن يظهر كقدوة لهم لو حدث الأمر.. مثل هذه المواقف تحتاج إلى ثبات بالتأكيد .. خبراتهم بالمصائب قليلة بينما يمتلك هو رصيد من الخبرات يسعفه .. سيظل يواسيهم حتى يخفف عنهم ألم الفراق الصعب و هو – عكس أبناؤه – رجل عسكرى يتمتع بثبات أنفعالى عالى سيخدمه .. فكر لو حدث الأمر .. سيكون مستعداً للتعامل معه بالتأكيد

مرت نصف ساعة أخرى و هو ما زال فى مكانه يفكر .. أنتبه و طرد تلك

الخواطر السوداء من رأسه .. أستغفر و أستعوذ من شيطان يعبث بعقله و تفكيره .. دخل غرفة أبنه الأكبر ليوقظها بلطف فلاحظ أن زوجته كما هى لم تتحرك .. خطا للداخل فشعر بشئ غامض داخل الغرفة .. شئ لا يراه و لكنه أقلقه بشدة .. أقترب من سرير زوجته .. ناداها فلم ترد عليه .. نادى عليها أكثر من مرة فلم ترد .. مد يده و هز جسدها برفق بلا أستجابة منها .. سحب الغطاء و هزها بعنف دون نتيجة .. تحسس جسدها .. بارد على غير العادة .. فتح عينيها فحدق فى فراغ بلا حياة .. أحتضن يدها و أحكم قبضته على شرايين معصمها فلم يشعر بنبض الحياة يسرى فيها .. أفلت ذراعها فتهاوت بلا مقاومة

كانت بالفعل قد ماتت

كل ما يتذكره الابن الأكبر أن أباه أتصل به و هو يصرخ بهلع قائلاً له أن أمه ماتت .. أما أبنته فتقول أنه أتصل بها و هو يبكى و يهذى و لم تستطع أن تستوعب شيئاً من كلامه سوى أسم أمها الذى ظل يردده عدة مرات بلا وعى .. يقول الجيران أنهم سمعوا صرخة فزع عالية و لأول مرة تقع أعينهم على العجوز الوقور يرتجف بهذا الشكل .. عندما أتى الأولاد كان قابعاً أمام جثمانها يحملق فيها بلا وعى و جسده ينتفض .. ظل الجميع لساعات يحاولون تهدئته بلا فائدة حتى أنهارفاقداً وعيه.. و طوال العزاء لم يستطع

الخروج أو التحدث .. حبس نفسه داخـل غرفتـه مكتفيـاً بالتحـديق بـذهول نحو السقف ومستمراً بالهـذيان بكلمـات غـير مفهومـة .. أضـطروا لأحـضار طبيب للكشف عليه بعد أن ساءت حالته فـأخيرهم أنـه يمـر بأزمـة عـصبية شديدة فسرها بحالة الوفاة الصادمة لزوجته التـى لم يكـن مـستعداً لهـا .. و رغم وجود أبناؤه بجواره لمساعدته و التخفيف عليـه .. إلا أن حالتـه سـاءت أكثر و لم يجدوا بداً فى النهـايـة مـن أيداعـه مـصحة نفـسية حتـى يـستعيد توازنه الذى فقده بسبب أزمة وفاة زوجته المفاجئة

الحارة

رجع سعيد بعد غربة أستمرت سبع سنوات إلى حارته حيث نشأ .. تذكر آخر مرة غادرها فيها .. أقسم ساعتها إلا يعود عليها أبداً .. و لكن للضرورة أحكام .. بعد كل تلك المدة التى حافظ فيها على قسمه يضطر للرجوع إلى حارته القديمة ليشهد فرح أخته.

لم يشأ أن يخطر أحد بموعد قدومه .. أرادها أن تكون مفاجأة .. يشتاق لرؤية أهله رغم أنه يحرص منذ سفره على التواصل معهم كلما أتيحت له الفرصة .. يغلبه الشوق لرؤية أخته الوحيدة حقاً .. أخته التى تحمل مسئوليتها بعد وفاة والده فأغرقها بمشاعر أبوة لم يظن يوماً أنه يمتلكها .. تركها طفلة فى بداية دراستها الثانوية و ها هو الآن يعود ليشهد زفافها .. لم يصدق أن دورة الأيام كانت أسرع من حساباته و هو رجل لا يجيد أكثر من الحسابات .. فرح أخته الصغيرة اليوم .. الطفلة التى كانت تعدو أمامه تلهو ببعض الحلوى كبرت لتعدو بفستان الفرح .. هز رأسه مبتسماً بعدم

تـصديق .. تعمـد أن لا يطلـع أحـداً بموعـد قدومـه حتــى لا يعطـل ترتيبـات الحفل .. و تمنى لو تم الزفاف خارج الحارة لعله يتجنب رؤية أهلها و لكن لم يكن الأمر بيده..

أسرع الخطا وسط الحارة .. تحسس حلته الأنيقة غاليـة الـثمن و حقيبـة يده الوحيدة التى تحوى بعض الهدايا الثمينـة .. سيبقى لعـدة أيـام فقـط و سيعود بعدها بسرعة .. أعماله فى الخارج لا تقبل التأجيل .. و لن يمكث إلا لمدة كافيه تسمح له بالأطمئنان على أخته و أمه قبل أن يعود إلى عالم لم يعـد ينتابه شعور بالراحة كثيراً خارجه..

تطلع إلى الحارة شبة الخاوية .. و شوارعها الضيقة المتعرجة التى خلت وقتها من المارة .. يبدو و كأن الجميع فـى الفـرح الآن .. تلـك عـادة الأفـراح الشعبية كما عرفها منذ صغره .. الكل يترك أعماله ليشارك فيها

سار يتمهل وسط الدكاكين المغلقة تعاوده بعض الصور من الماضـى .. صـور تراكمـت عليهـا أعـوام طـوال حتــى ظـن أنــه نـسيها .. تطلـع فيمـا حولـه مستهزئاً .. لا يبدو و كأن يد التغيير أتت بجديد على الحارة طوال المدة التى غاب فيها .. نفس الحارة القديمة بشوارعها المهملة لم يزدها مرورالـزمن إلا خراباً بعد أن ترك آثاره على بعض أبنيتها .. سـار بتمهـل يطـالع المحـلات المغلقة على جانبى الطريق .. أبتسم حانقاً و هـو يتفحـصها مـستعيداً بعـض

ذكرياتـه .. و تعـاود ذاكرتـه رغمـاً عنـه حكايـات و مواقـف قديمـة ربطتـه بالمكان..

على رأس الحارة .. يقبع " مخبز الأمـين " .. صـاحبه فتحـى الأمـين .. أسم على غـير مـسمى .. أبتـسم بمـرارة و هـو تـذكر كيـف كـان يقـف هنـا بالساعات تحت نار الشمس الحارقة فقط ليبتاع بعض الخبز .. كم مرة تقاتل فيها لأن شخصاً تعدى على دوره فى الطابور الطويل الذى يبدو و كأنـه يمتـد بلا نهاية .. أو أحداً داسه بالأقدام فى طريقه فـوق رؤوس النـاس للمخبـز .. يستعيد فى مخيلتـه صـورة تلـك اللحظـات و هـو يـصمد لاهـث الأنفـاس .. ملابسه متسخة و العرق الغزير ينساب من جسده بقوة بينمـا فتحـى الأمـين صاحب المخبز يقبـع فـى الـداخل ينفـث دخـان شيـشته بهـدوء و هـو ينظـر للأجساد المتدافعة بلا مبالاة .. يقولون أنه يهـرب الـدقيق المـدعوم إلى الـسوق الـسوداء و يكـسب كـثيراً .. لا يهـتم سـوى بـالنقود و ليـذهب النـاس إلى الجحيم .. أغمض عينيه و هو يسترجع تلك اللحظات المؤلمة و أسـرع الخطـى قليلاً.

أدار وجهه بعيداً حتى لا يتذكر المزيد .. شعور بالأشمئزاز تجاه حارتـه ينمو بداخله ليسيطر عليه .. و المرارة التى يشعر بها فى حلقة الآن لا سـبيل للتخلص منها .. تنبه إلى أنه توقف أمام محل " عباس الحلاق " .. هز رأسه

فى حنق .. كم مرة جاء هنا .. كـان والـده يـأمره دومـاً بـالتردد علـى عبـاس صديقه دون غيره .. يتذكر كيف كان يأتى متأففاً .. عباس الكهل العمـلاق لا يجيد سوى قصة شعر واحدة يطبقهـا علـى كـل الزبـائن .. حـاول كطفـل ثـم كمراهق أن يطلب منه القيام بعمل تسريحة حديثـة مثـل بـاقى زملائـه .. و لكن عباس كان يستهزئ به و يصب لعناته على كل موضة جديدة و يتـشبث بتسريحته المعهودة .. كل مرة يخرج من عنده لاعناً أيـاه .. عبـاس ثرثـار و يتركه أحياناً على كرسى الحلاقة لفترة طويلة لينطلق للثرثرة مع صديق عابر أو لشراء بضاعة ينادى عليها بائع متجول مر بالمصادفة أمام المحل .. يتـذكر كيف أنقطعت الكهرباء ذات مرة و أضطر للحلاقة تحت ضوء مصباح قديم .. و عندما تطلع فى المرآه بعد عـودة الكهربـاء ، كـاد يبكـى قهـراً بعـد أن رأى الجروح الصغيرة تعلو وجهه و رأسه .. لا ينسى يوم رسوبه فى أختبار اللغة العربية فى أحدى سنوات دراسته الأولى .. حمله أبوه إلى المحل قهراً و أمـر عباس أن يحلق له شعره تماماً كعقاب له .. توسل الى عبـاس و قاومـه و لكـن الحلاق العملاق أمسكه بقوة و بدأ فـى عملـه بـلا رحمـه .. لمـدة شـهر كامـل بعدها لبث فى البيت لا يجرؤ على الخروج و رؤية الـشارع حتـى لا يعـرض نفسه لسخرية زملائه .. يستذكر دروسه و هو يصب لعناتـه علـى الحـلاق و الدراسة معاً .. و لم يرسب بعدها أبداً

هز رأسه لعله ينسى تلك الـذكريات .. واصـل سـيره .. عـبر الحـارة إلى اليسار .. لاحظ أكوام من القمامة ملقاة بأهمال بجـوار مطعـم " صـلاح الأدهـم " .. تساءل بتقزز.. متـى يـصيب التحـضر هـؤلاء النـاس .. تـذكر المطعـم .. مطعم صغير يقف به صاحبه صلاح صباحاً مساءاً أمام موقد النار القـديم ليعـد أقراص الفلافل الساخنة و الفول الذى طالما أمتلئت به معدته دون أن يجد لـه بديلاً يناسب ضآلة مصروفه .. لا ينسى طعم الفلافل الساخنة التى تخرج مـن زيت تحول لونه للأسود من كثرة الأسـتخدام .. يأكلـها بـلا نفـس و يجـرع وراءها أكثر من كوب ماء ليتخلص من نارها على قلبه .. يتذكر حانقاً كم مرة وجد الطماطم فاسدة داخل الشطائر التى يشتريها فى طريقه صباحاً للمدرسه ، أو عندما يكثر عم صلاح من الملح كعادته على الطعام فيتحول إلى " فسيخ " لا يستطيع تذوقه ..

لا يدرى لما تعاوده تلك الصور الآن .. ربمـا رؤيـة كـل تلـك الأمـاكن مـرة أخرى تثير ذاكرته للعودة للماضى قسراً .. يسرع فى المشى قلـيلاً .. يتجـاوز محل " عم عاشور الخياط " .. كم مرة خاط هنا ملابسه .. تذكر آخر مرة طلب منه عمل بنطال .. و عندما أنتهى كان ضيقاً لدرجة أنه لم يستطع أرتـداءه .. طلب من الرجل العجوز تعديل المقاس .. و لكن الكهل أخذ وقتاً كـبيراً حتـى شعر بالندم لطلبه .. و عندما أنتهى تفاجئ بالبنطال واسعاً جداً علـى جـسده

الضئيل .. لم يشأ العودة إليه مرة أخرى .. و رمى البنطال فى خزانته دون أن يرتديه أبداً

تحسس حقيبة الهدايا .. نظر إلى ساعة يده الغالية .. قطرات من العرق تنساب منه .. سحب منديله المعطر و توقف ليلتقط أنفاسه قليلاً .. ثم واصل طريقه .. يقترب من محل عم " كامل البقال " .. يدعو ربه أن يكون مغلقاً .. لطالما كره هذا الرجل .. عندما كان صغيراً أعتادت أمه أن تناديه يومياً عدة مرات لشراء أغراض من البقالة بينما هو منغمس تماماً فى اللعب مع أصدقائه .. يترك اللعب ثائراً و هو يلعن كثرة الطلبات و يلعن معها عم كامل البقال .. لما لا تطلب منه أمه كل الطلبات مرة واحدة .. و لما لا يغلق عم كامل دكانه مبكراً و يريحه من التردد عليه طوال اليوم .. يتذكر يوم أشترى بعض الحليب من عنده .. و عندما توجه به للبيت أكتشفت أمه أنه فاسد .. غضبت و أمرته أن يذهب و يسكبه فى وجه " كامل الغشاش " كما صرخت فى وجهه .. كان صغيراً و خائفاً .. ذهب و سكب اللبن بعيداً و أشترى غيره من مصروفه من دكان بعيد .. لا ينسى محمود أبن عم كامل الذى زامله طويلاً فى المدرسة .. كان لا يحبه و لكنه يضطر لأستذكار دروسه معه لأنهم جيران .. أستراح بعدما نجح هو فى الثانوية بينما رسب محمود .. يمر من أمام دكان عم كامل .. الدكان مغلق و إن أبقى صاحبه بعض المصابيح مضاءة أمام المحل

كعادته .. يتنفس الصعداء .. يسرع الخطى و هو يلهث نحو بيته .. ينعطف يساراً .. يقابله دكان عم "جميل " بائع العطور .. يشتهر عم جميل بتقليد العطور الغالية و بيعها لأهالى الحارة بثمن رخيص .. كيف ينسى يوم أشترى زجاجة عطر من عنده و أستعملها .. فى المساء ظهرت بقع حمراء على رقبته و يديه .. لم يكن يعلم أن لديه حساسية من العطور .. و أضطر للذهاب للطبيب

لعن الحارة فى سره .. و كل ما يمت إليها بصلة .. أنعطف يميناً .. وقع بصره على دكان" حمادة العجلاتى " .. تطلع للمحل بغضب لم يستطع دفعه .. عندما كبر و أصبح ركوب دراجته الصغيرة أمراً محرجاً أمام زملائه ، و لم يستطع والده شراء دراجة جديدة له ، بدأ يعتاد المجئ هنا لأستئجار الدراجات .. تذكر يوم أستأجر دراجة لساعة واحدة فقط ليلعب مع أصدقائه .. لم يشعر بالوقت و تأخر .. فذهب عم حمادة إلى أبيه ليشكوه .. ليلتها عاقبه والده بشدة .. ولم يكتفى حمادة بذلك بل أستولى منه على قيمة إيجار ساعة أخرى على الرغم من أنه لم يتأخر سوى لدقائق معدودة..

ها هو يقترب من بيته .. يراه من بعيد .. يتنفس بأرتياح .. يتوقف أمام آخر محل قبل البيت .. محل " رشدى الساعاتى " .. المحل مغلق أيضاً .. ما زال يتذكرذلك اليوم و هو يلهو بالكرة مع أصدقائة أمام بيته .. فى أثناء

المباراة تملكه الحماس بقوة.. الفريقين متعادلان و من يحرز هـدفاً أولاً يفـوز بالمباراة .. أستلم الكرة بمهارة من صالح زميله و سددها بقوة .. أحـرز هـدفاً جميلاً أنهى المباراة لفريقه فقفز فرحاً .. لكن الكرة كانت قوية لدرجـة أنهـا طارت بعيداً و حطمت زجاج محل رشدى الـساعاتى .. ظـل لـشهرين بعـدها يدفع من مصروفه الصغير ثمناً للزجـاج المكـسور بعـد أن أشـتكى عـم رشـدى لوالده

لطالما كره هذه الحارة .. مراراً طلب من والدته أن ترحـل عنهـا إلى مكـان جديد و لكنها تمسكت ببيتها القديم .. و الأدهى أنها أصرت على أقامة حفل زفاف أخته وسط الحارة و أمـام بيتهمـا القـديم رغـم أعتراضـه الـشديد .. لم يرغب بالقدوم إلى هنا .. سيؤدى واجبه تجاه أخته الوحيدة .. يطمئن عليهـا ثم يغادر الحارة سريعاً .. يتمنى لو كان بمقدوره إلا يقابل أحد من أهلها ، و لكن لا مفر من ذلك .. كانت أمه تستحثه على المجئ مبكـراً .. لم يـنس أنـه رجل البيت بعد وفاة والده .. أراد أن يساعدها فى تحمل مشقة الفـرح و لكـن ظروف عمله لم تسمح له .. و تفهمت أمه ذلك

أخيراً يقترب من البيت .. الأنوار المتلألأة تستقبله .. تمـلأ المكـان بينمـا فـرش سـجاد أحمـر علـى الطريـق .. عنـدما أقـترب أكثـر لم يجـد بـداً مـن التوقف .. أتسعت عينيـه فـى ذهـول .. توقـف مبهـوراً يطـالع فيمـا حولـه

بدهشة لم يستطع أن يخفيها .. كان يتوقع فرحاً صغيراً .. و لكنه تفاجئ بفرح كبير لم ير مثله من قبل فى الحارة .. أنتشرت باقات الورد فى كل ركن من الحارة .. الكراسى فى كل مكان .. المسرح الكبير يسد الحارة بأكملها بينما سماعات ضخمة أنتشرت من حوله .. الأنوار تغطى بيته القديم من الأرض و حتى سطح البيت و تمتد لتغطى بيوت كثيرة حوله .. ما أن رآه بعض الحاضرين حتى أندفعوا للترحيب به .. هرع أصدقائه القدامى لأحتضانه .. لم يتوقع أستقبالاً دافئاً كهذا بعد طول تغيبه عن الحارة و أهلها .. رد التحية بود بينما يشق طريقه بصعوبه نحو بيته .. العروس ما زالت فى البيت لم تغادره .. مراسم الحفل لم تبدأ بعد .. يرفع بصره للسماء حمداً أنه أتى فى الوقت المناسب .. يسرع إلى البيت بصعوبة .. يرتقى الدرج بسرعة .. أضواء الفرح تمتد للداخل حيث أجتمعت بعض النساء داخل البيت للغناء بمرح .. تسرع النساء بالخروج عند علمهن بقدومه .. تستقبله أمه على الباب بشوق ما أن يتناهى إلى سمعها نبأ وصوله .. ما أن يراها حتى يرتمى فى أحضانها للحظات و يغيب عن الزمن لبرهة .. تندفع الدموع من عينيها و هو بين يديها .. يقبل رأسها ثم يستسلم لأحضانها الحارة مرة أخرى ، يتمنى أن يتوقف الزمن ليبقى هكذا للأبد .. تربت على كتفه بحنان .. تتمالك نفسها فتمسح دموعها .. تمسك بيديه و هى تبتسم له بأشتياق ..

تطمئن عليه .. تقوده بحنان إلى الداخل .. إلى حيث غرفة أخته .. طرق الباب و أنساب داخلها بخفة .. خرجت بعض الصديقات ممن بقين بجوار العروسة لتزيينها .. ما أن وقع بصره عليها حتى تسمر فى مكانه .. لم يصدق عينيه .. صغيرته أصبحت عروسة حقاً يتوج جمالها فستان أبيض رائع .. أقترب منها فى ذهول .. منع الدموع بصعوبة أن تنساب من عينيه .. بينما أنسابت الدموع من عينيها.. تذكر أنها وعدته أن لا تزف إلى عريسها إلا و هو بجانبها .. لن تقبل أن تدع أحد آخر يمسك بيديها ليقودها إلى حياة جديدة إلا هو .. أرتمت فى أحضانه فقبل رأسها فى شوق .. ربت على خدها بحنان ثم أسرع بالخروج قبل أن تغلبه مشاعره تاركاً لها المجال لأكمال زينتها..

أصوات الموسيقى تعلو من الخارج .. يتقدم إلى الشرفة و يتطلع منها إلى الحارة بينما تسرع أخته لتعديل زينتها بعد أن أبتل وجهها بدموع الأشتياق له .. يشعر بأمه بجانبه .. تتطلع معه للحركة التى تموج بالشارع .. يهمس فى أذنها بعد برهة " لم أتوقع فرحاً كهذا " .. تربت على يده برفق " أهل الحارة لم يتركونا للحظة واحدة .. تولوا كل شئ .. أحبوا والدك حقاً و أقسموا أن يقيموا فرح لأبنته يليق بمحبتهم .. و يعوض غيابه .."

تنفس بعمق و هو يشرف على الحاره ببصره .. يبدو الجميع فى حركة

مستمرة لأنهاء ترتيبات الفرح .. من بعيد يقف على الأمين و هو يحمل مجموعة من الكراسى و يرتبها بينما يساعده عباس الحلاق و قد تقوس ظهره تحت ثقل كرسى كبير يحمله .. يتذكر سعيد عندما مرض والده أصر على الأمين أن يبعث دوماً بالخبز إلى البيت كل صباح مع أحد صبيانه ، و عباس الحلاق الذى وقف دائماً بجانب والده فى مرضه و لازمه فى المستشفى لحظة وفاته .. يشاهد عاشور الخياط بجلبابه الأبيض و عباءته الحجازية التى لا يرتديها إلا فى المناسبات يقف لأستقبال المهنئين .. الكل يحب هذا الرجل .. يعتبرونه كبير الحارة لسنه و وقاره .. عاشور لم يخرج من بيته لفتره بسبب مرضه .. هكذا كان يسمع ، و لكنه يتحامل الآن على نفسه ليشارك الجميع الفرحة .. يلمح عم كامل البقال و أبنه محمود – زميل دراسته القديم – فى نهاية الحارة يقومان بنقل صناديق المشروبات بهمة و نشاط تمهيداً لتوزيعها على المدعوين .. لا ينسى سعيد يوم أن نجح فى الثانوية .. كان أول من عرف بالنتيجة عم كامل بعد أن ذهب لمعرفة نتيجة أبنه .. أستقبله فى الحارة بالترحاب .. أحتضنه مهنئاً أياه بدفء و فخر و كأنه والده .. لم ينسى سعيد ذلك الحضن أبداً .. وعلى الرغم من أن محمود أبنه قد رسب .. لكن هذا لم يمنعه من أن يقوم بتوزيع المشروبات على الحارة كلها أحتفالاً بنجاحه .. أحتفال صادق عفوى لم ينسى أثره إلى الآن .. عم

جميل يقف من بعيد يرتب باقات الورد العملاقة .. عندما سافر سعيد أصر عم جميل أن يوصله للمطار بسيارته الصغيرة على الرغم من أن ميعاد طائرته كان بعد منتصف الليل و هو ينام مبكراً ، و ظل فى المطار حتى أطمئن عليه .. فى البيت المقابل لمح صلاح الأدهم فى أحدى الشرفات يقوم بتعليق بعض لمبات الأضاءة .. يوازن نفسه على سور الشرفة حتى لا يقع .. تذكر ليالى رمضان عندما كان يغدو قبل الفجر لشراء الفول الساخن للسحور .. أعتاد صلاح أن يلبى طلبه أولاً على الرغم من كثرة الزبائن أكراماً لوالده .. و كان يكثر من الطحينية على الفول لأنه يعلم أن سعيد يعشقها .. و قبل آذان المغرب يهرع للمسجد كعادته لتوزيع التمر و المشروبات على الصائمين و كان سعيد يساعده أحياناً بحماس .. تبدأ الموسيقى فى العزف بصخب .. وصل العريس على الأرجح .. على المسرح حمادة العجلاتى يختبر الميكروفون و السماعات .. يتأكد أن كل شئ سليم .. لا ينسى يوم أن أستأجر دراجه منه ، أندفع مع زملائه بحماس و أختل توازنه فوقع و أنساب الدم من أنفه .. حمادة كان أول من هرع إليه .. لم يهتم بالدراجة التى تحطمت .. حمله و توجه به مسرعاً إلى العيادة فى الحارة المجاورة و لم يعد به إلى بيته إلا بعد أن أطمئن عليه .. تقطع أمه شريط ذكرياته .. حان موعد الزفاف .. يتقدم إلى أخته .. تتأبط ذراعه ليزفها إلى عريسها .. ينزلان الدرج ببطء بينما الموسيقى تتصاعد

فى الخارج .. يخرجان للحارة و يده فى يدها .. تعلو الزغاريد و يرقص البعض .. رشدى الساعاتى يطلق عدداً من الأعيرة النارية فتطغى على صوت الموسيقى و هو يرقص أحتفالاً .. يمشيان ببطء بينما تزفهما الفرقة الموسيقية من البيت و حتى المسرح الكبير الذى توسط الشارع .. أهل الحارة يشكلون دائرة حول سعيد الذى وقف فى وسطها .. ينظر إلى الفرح و إلى أهل الحارة الذين أندمج بعضهم فى الرقص بمرح بينما وقف آخرون يصفقون بحماس .. يتطلع سعيد إلى كل تلك الوجوه الباسمة .. ينتابه شعور ما بداخله .. شعور مفاجئ يجتاحه فيستسلم له .. يقف وسط الحشد الصاخب حوله تنتابه أنفعالات شتى .. يبتسم لأول مرة منذ وصوله إلى الحارة .. و لأول مرة منذ سبع سنوات كاملة أيضاً .. يحس سعيد بالأمان..

دائرة الحرامية

أنهى صابر عمله و توجه بسرعة نحو السوق لشراء أحتياجات المنزل قبل عودة الأولاد من مدارسهم .. بدأ بشراء الخضار من المحل القريب من منزله .. رغم عدم جودة المعروض تفاجئ بزيادة الأسعار .. سأل البائع المتجهم عن السبب فلم يجبه فى البداية قبل أن يرد عليه بنفاذ صبر بأن كل الأسعار أرتفعت و أن " السوق عرض و طلب " .. الحجة التاريخية المعتادة التى طالما سمعها .. وفقاً لهذا المبدأ يجب أن تهبط أسعار بعض السلع من وقت لآخر و لكن الأسعارالمجنونة لدى هؤلاء التجار لا تعرف سوى طريقاً واحداً.. للأعلى فقط .. حمل الاغراض غاضباً .. يعلم أن البائع يستغله نظراً لعدم وجود محلات قريبة .. لم يعد هناك خير .. هكذا قالها لنفسه و هو يسرع بالعودة إلى منزله .. بينما وقف البائع يلاحقه بنظراته و هو ينفث دخان سيجارته بلا مبالاة

* * *

أغلق سعيد البائع محله و توجه نحو منزله .. تذكر أن عليه المرور على

الطبيب .. هذه الكحة اللعينة التى لا تفارقه .. تكاد تمزق أضلاعه و تعجـزه عن النوم .. ربما بسبب أفراطه فى التدخين رغم أنه توقف من أسبوع تقريبـاً عن السهر مع أصدقائه فـى الغـرزة القريبـة و تـدخين الجـوزة .. توجـه إلى الطبيـب بتثاقـل .. العيـادة مزدحمـة كالعـادة .. تطلـع إلى الكراسـى القليلـة المتهالكة و الجدران التى أكلتها رطوبة قديمة .. عيادة متواضعة لا تتناسب مع شهرة الطبيب .. أنتظر لساعات بصبر مكبوت .. عندما حان دوره أخـيراً تفاجئ بأرتفاع قيمة الكشف لدى الطبيب .. كان هنا من أسبوعين فقط عنـدما كتب له الطبيب دواءاً لم يفلح فى تخفيف حدة الكحة لديـه .. دفـع مـضطراً قيمة الكشف المضاعف متسائلاً عن السبب فى زيادتها بهـذا الـشكل الفج .. كشف عليه الطبيب للمرة الثانية طالباً منه القيـام هـذه المـرة بعمـل أشـعة .. أوصاه بمركز أشعة بعيد رغم وجود أكثر من مركز قريب من العيادة .. يسمع أنه يتقاضى نسبة عن كل " زبون " يرسله إلى هنـاك .. خـرج غاضـباً بعـد أن وصف له دوائاً مهدئاً .. يرغب فى علاج لحالته و ليس مهدئاً لا ينفع و ربما يضر .. ما زاد من حنقه أنه لم يمكث لدى الطبيب أكثر من ثلاثة دقائق بعـد ساعات من الأنتظار أسرع الطبيب بعدها لأستقبال زبونه التالى

* * *

قبل منتصف الليل أنهى الممرض تنظيف العيادة .. جلس الطبيب مرهقـاً يراجع أيراد اليوم .. عاد لمنزله متأخراً .. ما زالت زوجته مستيقظة بينما نام

الأولاد .. تناول عشاءه وحيداً كالعادة .. طلبت منه زوجته مصروف البيت و هو يدلف للفراش .. ناولها المبلغ المعتاد و هو بين اليقظة و النوم .. تطلعت إليه للحظة قبل أن تطلب زيادة .. سألها عن السبب فأخبرته ببساطة أن معلم الدروس الخصوصية لأولاده زاد قيمة الحصة .. تساءل محتجاً عن سبب الزيادة المفاجئة .. هزت كتفيها لترد أن كل المعلمين قاموا بنفس الأمر .. اللعنة .. أولاده يعتمدون بشكل كبير على الدروس الخاصة .. لا وقت لدية لمساعدة أولاده فى الأستذكار أو مراجعة دروسهم التى لا تنتهى .. العيادة تستهلك كل وقته بالأضافة إلى عمل المستشفى الصباحى المرهق .. رغم أهتمامه بالمال إلا أنه يدرك أن أولاده هم أستثماره الحقيقى .. و لهذا لا يبخل عليهم .. يعلمهم جيداً .. ألحقهم بأفضل المدارس الخاصة طمعاً فى تعليم أفضل .. و لكن بيته مزدحم دائماً بمعلمين من كل المواد ملتهمين جزءاً كبيراً من دخله .. و تساءل بحنق .. لماذا لا يقوم هؤلاء المعلمين بدورهم على أكمل وجه داخل مدارسهم .. هو نفسه لم يأخذ درساً فى حياته .. و أولاده أذكى منه .. لماذا لا تكفيهم دروس المدرسة إذن .. فكر لوهلة أن يرفض و لكنه تراجع .. تنهد فى ضيق .. لن يرضي طموحه سوى تفوق أبنائه مهما دفع .. حلمه أن يرى أبناؤه أطباء مثله .. ناول زوجته المبلغ حانقاً .. لا يحب أن يستغله الناس .. أثار الموقف بأكمله غيظه لدرجة كبيرة .. و رغم أرهاقه لم

يستطع النوم

* * *

أنهى المعلم الـدرس .. نظـر فـى سـاعته .. ناولتـه زوجـة الطبيـب ثمـن الدرس .. تأكد أنها لم تنسى الزيادة التى طلبها .. غادر مسرعاً بعـد أن دس المبلغ فى جيبه .. لم يعد لديه دروس أخرى اليوم و لكنه يحتاج للـذهاب إلى ورشة الميكانيكى لأستلام سيارته التى تعرضت لعطل مفاجئ .. وقـف طـويلاً فى أنتظار تاكسى .. يـشعر بالـضيق .. لا يـستطيع الأسـتغناء عـن عربتـه .. قدميه التى يسير عليها متنقلاً من مكان لآخر للوفاء بجدول دروسـه اليـومى المزدحم .. بدونها يضيع وقت طويل فى التنقل هو فى أمـس الحاجـة إليـه .. عندما وصل أستفسر من عادل الميكـانيكى عـن سـبب الخلـل .. أجابـه عـادل بالكثير من المصطلحات الفنية المعقدة فهز رأسه و هو يـسمعها دون أن يفهـم معناها .. متأكد هو أن الخلل طفيف فالسيارة حديثة و لكن تلك هى عادة كل الحرفيين .. يضخمون المشكلة طمعاً فى مبلغ أكبر .. أخبره عادل أنـه أضـطر لتغيير أحد قطع المحرك بقطعة جديدة تكلفتها غالية .. للأسف لـيس لديـه خبرة كافية فى التعامل مع السيارات للـرد علـى هـذا المحتـال .. يـدرك أن سيارته جديدة و لا تحتاج لأى قطع غيـار و خاصـة بالنـسبة لمحركهـا .. و لكنه مجبر على مسايرته .. البـديل هـو نقـاش سيخـسره حتمـاً نظـراً لقلـة خبرته .. دفع إليه بالمبلغ الذى طلبه ساخطاً .. مبلغ كبير حقاً لم يتوقعـه ..

أستلم سيارته فلاحظ أنها متسخة من الداخل .. هذا الوغد أستعملها بالتأكيد فكتم غيظه .. أنطلق بها لاعناً بينما وقف عادل يودعه بهدوء و هو يمسك قطعة قماش ضاع لونها يمسح يديه بها مما علق بها من شحم

* * *

أغتسل جيداً .. يتنظر اليوم بفارغ الصبر .. نهاية الأسبوع .. يغلق ورشته و يتجه إلى قريته البعيدة .. منذ جاء إلى المدينة من سنوات طويلة و هو معتاد أن يقضى يوم العطلة وسط أهله .. هناك فقط يشعر بالراحة .. لولا الحاجة و اتساع منافذ الرزق فى المدينة ما فكر فى ترك قريته .. كما أنه يشتاق لرؤية خطيبته .. ثلاث سنوات من الخطوبة مرت سريعة ..أبتسم عندما تذكر أن أسابيع قليلة فقط تفصله عن عرسه .. أخيراً أنتهى من تشطيب بيته الجديد الذى ألتهم معظم دخله .. ثلاث سنوات ارتفعت فيها أسعار المواد و أجور الحرفيين أكثر من مرة حتى ظن أنه لن ينتهى منه .. " هانت " هكذا قالها لنفسه .. توجه إلى المحطة بعد أن أبتاع بعض الهدايا .. الجو ممطر اليوم و الوقت متأخر و لكن هذا لن يمنعه .. لا يريد الأنتظار للصباح حتى لا يضيع وقتاً أطول .. قابله زحام شديد على المحطه .. وعربات متهالكة تتراص كأحجار نرد قديمة .. وجد مكاناً خالياً بصعوبة بعد أن أنتظر طويلاً .. السيارة لا تتسع إلا لعشرة أشخاص و لكنهم يكدسون بها أربع عشر راكباً آدمياً يتنفس .. مهما سافر على هذا الطريق لا يصل إلى بلدته

إلا بعد أن تتحطم أضلاعه من كثرة المطبات .. و الأسوأ منهـا رعونـة الـسائق الذى يتصيدها و كأن له جائزة على كل مطب يعـبره بتهـور .. فـى منتـصف الطريق أخرج عادل الأجرة المعتادة .. تنبه إلى صوت السائق الذى طلب منهم بحزم مضاعفة الأجرة متحججاً بـأن اليـوم زحـام و عـدد الـسيارات قليـل .. سرت همهمة أعتراض بين الركاب و لكنها لم تعلو لتصبح مسموعة .. نغمـة تتكرر كل مرة فى أجازة نهاية الأسبوع .. يستغلون حاجة الركاب فتتضاعف الأجرة وفقاً لأهوائهم .. تذكر آخر مرة أعترض فيها الركاب على تلك الأتاوة غير المبررة .. أخرج السائق سلسلة معدنية ضخمة مـن تحـت مقعـده معطيـاً للركاب أحد خيارين كلاهما مر .. أما الدفع .. أو مغادرة السيارة فى منتصف الطريق .. نزل بعض الركاب دون أفتعال شجار معـروف نهايتـه مـع سـائق شبه فاقد للوعى و العقل .. هبط معهم .. أنتظر وسط الحقـول لـساعات حتـى سمع آذان الفجر من مسجد قريب .. لم تسعفه إلا عربة نقـل مخصـصة لنقـل المواشى فى الصباح .. عليه أن يتغاضى اليـوم عـن هـذه الأتـاوة منعـاً لتكـرار التجربة الأليمة .. كما أن الجو ممطر و البرد يتسلل إلى أطرافه .. ما يغيظـه أن الموقف نفسه سيتكرر عند العودة و سيدفع مرغماً .. لصوص أولئـك الـذين يستغلون حاجة الناس بهذا الشكل المهين .. أستمرت الرحلة لساعة قبـل أن تلفظهم السيارة على الطريق أنطلق بعدها السائق مخلفاً وراءه سـحابة دخـان

داكنة من عادم سيارته المتهالكة مسبباً لبعض الواقفين أزمة سعال حادة

* * *

أسرع السائق إلى منزله طلباً للراحة .. ورديته الأخيرة أستمرت خمسة عشر ساعة كاملة أستعان خلالها بعدد هائل من أكواب الشاى و السجائر و بعض "البرشام" صناعة محلية .. عادة لا يعمل كل هذا الوقت و لكن اليوم نهاية الأسبوع و الربح مضاعف .. أستقبلته زوجته بفتور بينما لم يستيقظ أولاده بعد .. وضع رأسه على الوسادة و نام بعمق قبل أن تيقظه زوجته بعنف بعدها بأقل من ساعتين .. أنتفض فزعاً .. فتح عينيه بتثاقل و نظر للوهلة الأولى إلى الكائن الذى يحاول تنبيهه دون أن يتعرف عليه .. ذكرته بأنه هو الذى طلب منها أن توقظه بعد ساعتين .. نظر فى ساعة يده بعين واحدة .. موعد ورديتة الثانية .. اليوم حركة المسافرين كبيرة نظراً لنهاية الأسبوع و المكسب أكبر .. أرتدى ملابسه و هو يترنح من سكرة الأستيقاظ المفاجئ من نوم عميق .. فتح دولابه ليسحب مبلغاً كبيراً من المال .. كل الذى جمعه خلال العاميين الماضيين .. اليوم يكتمل مقدم السيارة الجديدة التى طالما حلم بها .. سيارة حديثة تنقله إلى مستوى السائقين الكبار بدلاً من تلك السيارة الأثرية التى يقودها و التى أنفق كثيراً على صيانتها بلا فائدة .. ينوى أن يتوجه اليوم بعد ورديته إلى تاجر السيارات لدفع المقدم .. لم تتاح له الفرصة لرؤية أولاده .. أو تناول أى طعام .. ركب السيارة و أدار المحرك

الذى لم يستجيب سوى فى المرة الرابعة .. أنطلق فى طريقه شبه واعى .. بعد ست ساعات أخرى من الدوران بين القرية و المدينة .. عد أيـراده .. و أنطلـق نحو معرض السيارات

* * *

متعباً وصل إلى هناك .. متلهفاً لتحقيق حلمـه الـذى ظـل لـسنوات يكـدح على أمل تحقيقه .. صاحب المعـرض مـشغول فوقـف للحظـات يملـى عينيـه بمنظر السيارة بهيكلها اللامع الذى تنعكس عليه أضواء المعـرض .. سـينهى الأجراءات ثم يتوجه بها غداً إلى منزله بعد أن يمـر علـى محـل ورد يعرفـه جيداً لتزيينها .. عروس جديدة لها واجب الترحيب .. عروس مهرها غـال أقتطعه من صحته و قوت أولاده .. قطع تدفق أفكاره صـوت صـاحب المعـرض الأجش يرحب به .. قدم له المبلغ متحمساً .. أرتبك صاحب المعرض قلـيلاً .. أخبره أن أسعار السيارات زادت و أرتفـع معهـا بالتـالى مقـدم الـسيارة التـى يحتكر توكيلـها .. طلـب منـه بأسـف مبلـغ أكـبر .. أحـس الـسائق بطعنـة تجهض أحلامه .. ظل لفترة محدقاً فى وجه صاحب المعرض دون أن ينطق .. لماذا زادت الأسعار بهذا الشكل .. كان هنا من أسابيع معـدودة فقـط .. كيـف توحشت لهذا الحد خلال تلك الفترة الضئيلة .. لملـم نقـوده و غـادر المعـرض يجر وراءه أذيال خيبة أحلامه .. الثور عليه العودة لجر الساقية لفترة أطول حتى يستطيع أن يفدى نفسه .. غـادرالمعرض مـنكس الـرأس يرقبـه صـاحب

المعرض و هو فى طريقه للخارج بلا أهتمام

* * *

لم يطق الحر الشديد داخل المكتب .. أنتظر طويلاً .. تطلع بنفاذ صبر إلى الملفات المكدسة فوق المكاتب .. عاجله الساعى بكوب من القهوة متأملاً أكرامية كبيرة من العميل الذى يعرفه جيداً .. أخبره بتودد أن صابر – الموظف المسئول – على وشك الوصول .. لديه أجتماع هام سينتهى بعد لحظات .. تطلع تاجر السيارات إلى ساعته .. أعاد تفحص الأوراق التى جاء بها .. أو التى جاءت به إلى هذا المكتب .. آخر صفقاته .. سيارات مستوردة من الخارج لمعرضه أوقفوها لنقص الأوراق .. قالوا أنها مجهولة المصدر .. مر بهذه المواقف من قبل و يعرف كيفية التعامل معها .. كان يعرف الموظف السابق و لكنه رحل بتهمة الرشوة .. لا يعرف الموظف الجديد .. سجله نظيف كما يقولون و لكن لا بأس من المحاولة .. قلبه معلق بالصفقة لعلها تنقذه من تعثر مالى يهدده .. رشف بتوتر من فنجان القهوة سئ المذاق و هو يفكر فيما سيقوله .. متمنياً أن ينتهى الموضوع كما يريد مهما كلفه

أنهى صابر الأجتماع و توجه إلى مكتبه .. يشعر بالأرهاق اليوم .. أضطر إلى الذهاب إلى العمل مشياً بعد أن أستيقظ متأخراً و فاته أتوبيس المصلحة .. و النقود القليلة فى جيبه لا تسمح له بترف ركوب التاكسى .. دلف إلى المكتب

حاملاً الملفات بين يديه .. تفاجئ برؤية شخص يجلس مقابل مكتبه .. رجل ضخم يرتدى حلة غالية و يمسك برشاقة بفنجان القهوة .. جلس على مقعده و تطلع للرجل من تحت زجاج نظارته السميكة .. تحرك الرجل الضخم ما أن رآه .. قدم له نفسه .. تاجر سيارت معروف و صاحب معرض كبير .. ناوله الملف الذى يمسكه بلا كلام .. قلب صابر فى الأوراق قليلاً قبل أن يعيدها مرة أخرى إلى الرجل مبلغاً أياه أن الأوراق غير مكتملة .. أبتسم التاجر أبتسامة كبيرة مصطنعة .. تلفت حوله للتأكد من عدم وجود أحد .. لمح الساعى يقف خارج الغرفة ليمنع أى عميل من مقاطعتهم .. خاطبه بلطف بأنه يعتمد عليه خاصة أن الأوراق تخص صفقة هامة يقوم بها ، و يجب أنهاء الأوراق فى أسرع وقت تحسباً لخسارة مبلغ كبير من المال بسبب غرامات التأخير .. أخبره بصوت منخفض أن المسألة لا تحتاج سوى إلى توقيعه .. نهض بعدها من مكانه فدار حول المكتب .. أخرج ظرفاً صغيراً مكتظاً و دسه بحرص فى درج مكتبه و حرص على أن يكون طرفه مفتوحاً .. نظر صابر إلى كومة الأوراق التى أنبثقت من المظروف منقلاً بصره بينها و بين التاجر الذى عاد إلى مقعده يدخن بهدوء و كأنه لم يفعل شيئاً .. دخل الساعى فأرتبك صابر قليلاً و لكن التاجر أشار إليه بالأنصراف فأطاعه بسرعة .. الرجل ذو نفوذ هنا أذن و تلك ليست أول مرة .. أنشغل التاجر بالرد على مكالمة طارئة مما

منح صابر بضع لحظات يتمناها و يحتاجها حقاً لأعادة تفكيرة المشوش .. يدرك أن بوسعه أنهاء الأجراءات بجرة قلم منه .. هذه أول سابقة يتعرض لها منذ أن ترقى و أنتقل إلى المكتب الحالى .. تطلع نحو التاجر لبرهه .. لن يوفقه شئ .. يعرف هدفه بالتأكيد و يمكنه أنهاء الاجراءات عند مديره أو حتى من هو أعلى منه .. فكر فى أولاده و زوجته .. نظر إلى ملابسه الرثة .. تذكر راتبه الهزيل المفروض عليه مواجهة غير متكافئة مع أسعار تتوحش كل يوم بلا منطق .. معركة خاسرة يدفع ثمنها أولاده .. و تسحق كرامته يومياً .. دائرة ملعونة تحكم حلقاتها حول كل شريف مثله و لا تعرف الرحمة لكل من هو خارجها .. و الحل الوحيد بعد التفكير هو الأنضمام إليها .. و تساءل و هو يلقى نظرة أخيرة إلى النقود .. تذكرة أنقاذه .. هل بأمكانه حقاً أن يتخلص من مشاكله و يصبح أخيراً جزءاً من هذه الدائرة .. و..

أنهى التاجر مكالمته بينما كان صبرى يلقى على النقود نظرة أكثر أستسلاماً

حفلة عيد ميلاد

تبنهت من أغفاءة قصيرة مقلقة .. نهضت بصعوبة رغم آلامها .. تستند على حافة السرير حتى تستطيع القيام .. وقفت لثوان ثابتة فى مكانها عاجزة عن الحركة قبل أن تستجمع قواها و تتحرك للأمام ببطء و ثبات .. تخرج إلى الصالة الكبيرة .. ترمى نفسها بوهن فوق أول كرسى قابلها ، لكنها تقفز مذعورة عندما تلمح عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشر .. للحظات تعيد أستجماع قواها مرة أخرى قبل أن تتوجه بصعوبة نحو المطبخ .. ساعتان و يصل أبنها من العمل .. عليها أن تنهى أعداد الطعام قبل وصوله .. تعلم أنه يأتى جائعاً .. يأكل حتى قبل أن يبدل ملابسه .. هى التى علمته من صغره أن لا يتناول أى طعام فى الخارج .. لم تكن تثق بأكل المطاعم على أى حال .. و رغم ساعات عمله الطويل إلا أنه ينتظر حتى يأتى للمنزل لتناول طعامه معها .. الوقت الوحيد فى اليوم الذى تتمكن من الأجتماع به و رؤيته قبل أن يعاود الخروج لعمله مرة أخرى فى المساء .. ينتابها بعض الحماس .. تشعر ببعض النشاط يدب فى جسدها الواهن .. تشعل الموقد .. لما

يبدو كل شئ باهتاً أمام عينيها اليوم .. ربما من أثر المياه البيضاء التى أهملت طويلاً علاجها .. نصحها الطبيب مراراً بضرورة أجراء عملية عاجلة و لكنها لا تحب العمليات .. تخاف منها .. زوجها مات على طاولة عملية .. كما أن أولادها دائماً بحاجة إليها .. لا تقوى على البقاء بعيدة عن المنزل و عن أولادها لفترة طويلة .. تبدأ فى غسل الخضروات الطازجة التى أشتراها البواب صباحاً بينما تتصاعد رائحة السمن من أناء وضعته على الموقد .. تلاحظ أرتعاش يديها و هى تمسك السكين لتقطيع البصل .. لم تكن تلك الرعشة تنتابها بتلك القوة من قبل .. يبدو أنها نسيت تناول الدواء .. ستتناوله على أى حال لاحقاً فأمامها يوم مزدحم .. عليها الأنتهاء من أعداد الطعام أولاً فأبنها سيعود قريباً .. ثم وضع اللمسات الأخيرة للحدث الذى تنتظره .. عيد ميلاد أبنها الأصغر الذى تحتفل به اليوم

تسمع جرس الباب .. من المؤكد أنها صباح المرضة .. تمرعليها كل صباح بناء على تعليمات طبيبها .. تمكث معها ساعة أو أكثر .. تتأكد من أنتظامها على الأدوية ، و تحقنها بتلك الحقن اليومية المؤلمة التى أوصى بها الطبيب .. تمضى نحو الباب بصعوبة و هى تستند على الحوائط .. تفتح الباب .. طالعها وجه صباح المشرق .. خرج صوتها ضعيفاً رغماً عنها و هى ترحب بها .. قبلتها صباح كالعادة و هى تدلف للداخل .. أعتادت أن تفعل

ذلك دائماً .. و رغم أنها تزورها من عدة أسابيع فقط ، و لكنها تشعر بألفة غريبة معها .. توجهت صباح نحو أريكة فى الصالة لتجلس عليها و هى تعبث فى حقيبتها .. لحقت بها و هى تجر أقدامها بصعوبة .. تبادلا بضع كلمات .. قبل أن تستأذن منها للتوجه للمطبخ للأنتهاء من الطعام قبل موعد وصول أبنها .. تطلعت صباح للساعة بتعجب قبل أن تقول:

-النهاردة الخميس .. مش أبنك بيرجع متأخر فى اليوم ده

تذكرت بالفعل أن أبنها يتأخر كل خميس لحضور أجتماع أسبوعى فى العمل .. تلوم النسيان الذى يهاجم ذاكرتها الضعيفة بلا هوادة .. تطفئ الموقد و تعاود الجلوس مع صباح التى أخرجت بعض الأدوات من حقيبتها .. بدأت بقياس الضغط المرتفع كالعادة .. ثم نهضت معها بأتجاه غرفتها لتناولها الحقنة المعتادة .. بمجرد أن دلفت صباح إلى الغرفة حتى وقعت عيناها على جبل الأدوية الملقى بأهمال على منضدة صغيرة بجوار سريرها .. تعلم أنها تعانى من أمراض عدة .. تتذكر آخر زيارة للطبيب و تعليماته التى ألقاها إليها بصرامة:

-لازم تستريح كويس .. و الأدوية تاخدها بأنتظام .. أى مجهود زيادة أو أرهاق هيشكل خطر على عضلة القلب الضعيفة .. حاولى تبلغى الكلام ده لأولادها

و لكنها لم تقابل أى من أولادها .. ألتفت إليها و هى تتمدد على السرير بألم .. خاطبتها فى أشفاق:

-أنتى لازم تستريحى .. دى تعليمات الطبيب

لم ترد عليها .. ليست حمقاء أو صغيرة لا تدرك قوانين الحياة .. تعلم أن مرضها تجاوز مرحلة العلاج و الأمل و بدأت فى مرحلة أنتظار القدر .. كل ما تريده هو بعض المسكنات حتى تستطيع القيام بدورها .. لن يستطيع ألف طبيب أن يمنعها من مواصلة القيام بمسئوليتها كأم فى رعاية أبنائها .. مصدر سعادتها الوحيد فى الحياة الآن .. صحيح أنهم كبروا و لكنهم ما زالوا يعتمدون عليها .. لن يؤلمها المرض و لكن سيقتلها أن تنتهى سنوات دورها كأم لأبناء لم ينعموا كثيراً بظل الأب .. تبتسم لصباح و تنهض لتعد لها مشروب ما .. تكسبها حقنة المسكن عادة بعض النشاط .. تحاول النهوض فيجبرها آلم مفاجئ على السكون .. ما زالت بحاجة لبعض الوقت حتى ينتشر مفعول الجرعة بشكل كامل .. تستغل صباح سكونها فتبدأ ثرثرة معها لا تنقطع بسهولة .. تستسلم لها لنصف ساعة .. بعد أنصراف صباح التى قبلتها و هى تغادر .. تعود للمطبخ لمعاودة أعمالها .. تمزج الدقيق و البيض و السكر فى أناء كبير .. تصنع كيكة كبيرة قبل أن تضعها فى الفرن لتنضج ببطء .. تعود لغرفتها لتتناول دوائها الصباحى الذى نسيته

فى طريقها تقع عيناها على غرفة أبنها محمود .. آخر أبنائها .. تتـذكر فجأة أمر ما .. تلوم النسيان تلك المرة بقوة أكبر .. تتوجه إلى غرفته .. دائمـاً تؤجل تنظيف الغرفة حتى قبل موعد قـدوم أبنهـا بـساعات فتكـون جـاهزة لأستقباله .. ترجئ تناول الدواء حتى تنتهـى .. أجـازة محمـود الأسـبوعية اليوم .. يأتى غالباً عند الخامسة مثل أخيه .. تجتمع العائلة أخيراً فى نهاية الأسبوع .. يعمل فى بنك كبير فى العاصمة بعيداً عنها .. ينهى عمله مبكـراً فيسافر إليها .. يقضى الخميس معهـا و الجمعـة مـع أصـدقائه و يـسافر فـى نهاية اليوم .. يوم واحد فى الأسبوع أفضل من لا شئ .. عيد ميلاده منتـصف الأسبوع القادم و لكنها ستفاجئه و تحتفل به اليوم .. حملت معهـا دلـو مـن الماء رغم ثقله .. سقت الزهـور التـى يهـوى زراعتهـا علـى حافـة نافذتـه .. نظفت السجاد و فرشت ملاءة جديدة على الـسرير .. فتحـت النافـذة لتـسمح بدخول الشمس .. مـسحت الأرض بعنايـة ثـم رتبـت الغرفـة .. آلام الظهـر تهاجمها بقسوة و كأن عشرات من المطارق الصغيرة تهشم عظامها .. تتنفس بصعوبة و لكنها تواصل العمل .. قاربت على الأنتهاء على أى حال .. تعـود أن يترك غرفته فى فوضى و لكنها تحـب فوضـويته .. تمـسح بعـض الغبـار المتراكم فوق الزجاج المحيط بصورتـه .. يقولون أنه يشبهـها كثيراً .. عنيـد و قوى الشخصية .. يقولون أيضاً أنها دللته .. و لما لا و هـو آخـر أبناءهـا .. لم

تكن تبخل عليه بشئ .. تعود أن يبوح بكل مشاكله و أسراره لهـا.. و لكنهـا كانت أيضاً تقسو عليه أحياناً لمصلحته .. تتذكر عنـدما ضـربته بـشدة عنـدما رسب فـى أول أختبـار بعـد وفـاة أبيـه ، و لم يرسـب بعـدها أبـداً .. أحـب الرياضيات مثلها و شجعته هى .. ربما كان ذلك هو السبب فى دخوله كليـة التجارة ليصبح محاسباً فيما بعد .. لا تتذكر كم مـرة سـهرت معـه فـى تلـك الغرفة قبيل أمتحاناته .. و عندما حصل على عمل بعيـداً عنهـا و تـردد فـى الذهاب .. شجعته و طلبت منه أن يتصرف كرجل لا كطفل ثـم بكـت عنـدما خلا البيت منه لأول مرة و نامت ليلتها فى غرفته .. هو أيضاً أعتاد أن يكون قوياً أمام الناس و لكن بداخله قلـب حـساس .. تتمنـى فقـط أن لا يـشبهـها و يرث قلب عليل ضعيف مثلها

ترتب المائدة بحمـاس .. أسـرتها الـصغيرة تعـاود الأجتمـاع اليـوم .. لم يحدث أن أفترقوا بهذا الـشكل .. تعاودهـا الـذكريات .. عنـد وفـاة زوجهـا راهنوا على فشلها كثيراً .. أم عاملة بدون زوج لم يترك خلفه شئ يـذكر.. و طفلين فى أشد مراحل الأحتياج إليها .. كتب عليها أن تقوم بثلاثة أدوار على مسرح حياتها .. أم و أب و عاملـة .. أنتظـر الـبعض فـشلها و بخاصـة أهـل زوجها لأسدال الستار و أنتزاع الأطفال منها .. و لكنها صمدت .. صبرت .. و قاومت .. لم تكن صلبة و لكن حبها لأبنائها أورثهـا صـلابه لم تظـن يومـاً

أنها تمتلكها .. عملها كموظفة حسابات فى شركة كبيرة بالأضافة إلى معاش زوجها الضئيل وفر لها الحماية من ذل سؤال الناس .. ألحقت أبنائها بمدارس خاصة تنهى يومها الدراسى متأخراً حتى تستطيع أنهاء عملها بعد الظهر و التوجه للسوق ثم أصطحابهم بعد المدرسة .. أجهدها الأمر فى البداية و أستنزف قواها .. خاضت حرب طويلة مع أهل زوجها بعد أعلانهم نيتهم ضم الولدين إلى أحضانهم .. كادت أن تستسلم و لكن خوفها على أبناءها زادها أصراراً .. و أنتصرت فى النهاية على حساب أشياء مهمة تراجعت كثيراً فى قائمة أولوياتها خلف أبناءها أولها صحتها .. ضحت بالزواج .. و قبله بمال ربما كان كافياً لأنهاء كل أزماتها عندما عرض عليها رئيسها فى العمل التلاعب فى حسابات الشركة للتهرب من الضرائب .. لم يكن ضميرها الذى منعها فقط ، و لكن خوفها أن ترى أجساد أبنائها و هى تنمو أمامها من حرام ما جعلها تصر على الرفض بحزم .. أضطررت للانتقال إلى وظيفة أخرى بعد أضطهاد رئيسها السابق لها .. زادت أعبائها و لكنها لم تستسلم .. هاجمها المرض مبكراً فأسلمت له قلبها و لكنها لم تسمح له أن يضعف من عزيمتها .. وفرت لأبناءها كل ما يحتاجونه قدر أستطاعتها .. لم تسمح يوماً بدخول غريب إلى بيتها .. تعلمت أن تستذكر لهم دروسهم حتى لا تحتاج إلى مدرس خاص ينتهك حرمة بيت تسكنه أمرأة بلا رجل .. ربت

أولادها على الأخلاق .. منحتهما الثقة من الصغر .. لم يشعر أى منهما أنه أقل من غيره .. حتى أبناء الجيران كانوا يحسدون أبناءها أحياناً .. ندمها الوحيد أنها لم تنجب لولديها أختاً تكون أم صغرى لهما ، و تواصل بعض دورها بعد رحيلها .. صعب عليها حقاً أن لا يجتمع أولادها إلا مرة فى الأسبوع و لكنها تعى طبيعة الحياة .. ليس ذلك وقت الذكريات .. هزت رأسها و هى تخاطب نفسها .. اليوم يوم الأحتفال بأبنها .. عيد ميلاده الذى تحرص على الأحتفال به سنوياً منذ صغره

نظرت إلى الساعة عندما أنتهت من ترتيب الغرفة .. كانت الثالثة .. هل الوقت أصبح يمضى بسرعة أم تراها هى التى أصبحت بطيئة أكثر من اللازم .. أمامها أقل من ساعتان حتى يعود أبنها الأكبر من عمله .. و بعدها بدقائق يصل الأصغر .. ما زال أمامها الكثير لتنجزه بعد .. توجهت إلى المطبخ لتتأكد من نضج الكيكة التى أعدتها للمناسبة .. أسرعت لتبديل ملابسها .. ما زال عليها شراء بعض الحلوى و الأغراض الأخرى .. لا تثق بذوق البواب .. ستقوم بذلك بنفسها .. عندما أنتهت من تغيير ملابسها كانت تلهث و كأنها أنتهت للتو من سباق طويل .. على باب المنزل تذكرت أنها لم تتناول جرعة الدواء بعد .. فلتنتظر حتى تعود .. تستند على سور الدرج .. تهبط على قدم واحدة بعدما تحطمت الأخرى من سنة أثر أنزلاقها

فى الحمام و لم تلتئم عظامها المسنة بعد بشكل جيد .. أستغرق الأمر عشر دقائق كاملة لترى ضوء الشارع .. تفاجئها حرارة الجو .. و الشمس التى أجبرتها قوتها على أغماض عينيها لوهلة .. تشق طريقها بتأن و صعوبة نحو محل بعيد تعرفه جيداً رغم وجود محلات مثله قريبة ، و لكن بضاعتها ليست بنفس الجودة .. وصلت هناك و هى تسمع صوت حشرجة فى صدرها بدلاً من صوت التنفس .. صدمها جو المحل المكيف فوقفت لتلتقط أنفاسها قليلاً .. أنتقت مجموعة و أشارت للبائع بتغليفها .. حملت الأكياس الكبيرة للخارج .. هل زادت حرارة الشمس أم ضعفها هو الذى يهيئ لها هذا .. توجهت بصعوبة لمحل آخر أبعد لشراء بعض الأغراض و هى تلتقط أنفاسها بصعوبة .. أختارت شمعاً على هيئة عدد سنوات أبنها الجميلة فى حياتها .. أشترت بعض العصائر و المشروبات الباردة و معها أغراض أخرى .. لم تنتبه إلى أن الحمل أصبح ثقيلاً إلى حد ما .. سارت ببطء فى طريق عودتها .. عبرت الشارع بصعوبة لتدلف إلى محل عطور أختارت منه زجاجة عطر غالية يحبها أبنها .. طلبت من البائع أن يغلفها على شكل هدية .. لم تنسى أن تشترى زجاجة أخرى لأبنها الأكبر من النوع الذى يفضله أيضاً .. اليوم تحتفل بهما معاً .. هكذا أعتادت فى كل مناسبة .. حملت الأغراض و توجهت للخارج .. يجبرها الحمل الثقيل على أن تسير

بتمهل .. بدأت تـسمع صـوت تنفـسها العـالى .. تـشعر بقلبهـا ينـبض بقـوة أكبر .. ربما بسبب الحفل الذى تعده و تنتظره .. و لكنه ينبض بـألم و كـأن وتد معدني بارد يخترقه ببطء .. تتجاهل الأمر .. أزدادت حرارة الجـو و لا وجود لظل فى الشارع .. لن تتوقف على أى حال للأستمتاع بالظـل و الوقـت يداهمها .. أمتار قليلة فقط و تصل لبيتها .. تصلبت يداها و برزت الشرايين منها و هى تتشبت بالأكياس .. دقائق و تصل لوجهتها .. تحاملـت .. تـرى معالم الطريق باهتة أكثر من اللازم .. الصور أمامها بلا تفاصيل .. يبـدو أنـه من أثر المياة البيضاء التى تراكمت على عينيها .. ينحنى ظهرها قليلاً تحـت ثقل الحمـل و هـى التـى أعتـادت أن لا تمـشى إلا مرفوعـة الـرأس .. تـشعر بحراتها ترتفع .. تلهث .. خطواتها تبطئ بالرغم من أنهـا تبـذل مجهـوداً أكبر .. يصيب قدميها تثاقل خبيث .. لا تريد أن تتوقف .. ترى البناية مـن بعيد فتشعر أنها على بعد أميال .. تستنشق أكبر كمية من الهواء لا ينفذ إلى صدرها منها إلا القليل .. لم تعد تسمع ضوضاء الشارع .. يغطى صوت ضربات قلبها العالى على أى صوت آخر .. ما زالت تشق طريقها رغم ذلـك .. تحـاول أن تنظر للوقت و لكن الصورة تبهـت تمامـاً .. الألم ينـسحب و يتجمـع عنـد قلبها .. الهواء رغم وفرته لا ينفذ إليهـا .. تـدريجياً يكـسو اللـون الأحمـر عيناها فيكتسى كل شئ بنفس اللون الدامى .. رجفة تـسرى فـى أطرافهـا ..

عندما تنجح أخيراً فى الوصول إلى مدخل البنايـة .. تفـشل فـى الأبقـاء علـى توازنها .. تتعثر .. تضعف مقاومتها .. و رغماً عنها تتهاوى ..

علمت صباح بما حدث فى اليوم التالى .. وجدوها أمام مدخل البناية بعـد أن تهاوت على الأرض و يدها مـا زالـت متمـسكة بمـا تحملـه .. لم يـستطع الطبيب أن يفعل أى شئ .. و تكفل أقاربها بكل الأجراءات

رغم توقعها بحدوث ذلك إلا أن الأمر صدمها .. صـدمها أكثـر أن تفقـدها بعد أن تعلقت بها و أحبتها .. فى المساء مرت على بيتها .. أنتابها الألم حقاً و هى ترى سرداق العزاء أمامه .. أنهالت دموعها رغم عنها على المرأة الطيبة التى عرفتها لأيام فتركت أثراً لا يمحى مـن قلبهـا .. أمـام الـسرداق الكـبير يقف بعض الرجال .. لم تعرف منهم أحداً إلا البواب .. رجل منهم يرتـدى بذلة أنيقة يقف فى صدر السرداق يتلقى التعازى من الجميع .. لم تقع عيناها عليـه مـن قبـل .. خـرج البـواب فـى تلـك اللحظـة ليحمـل بعـض الكراسـى فتوجهت إليه .. سألته عما حدث .. تمالكت نفسها بصعوبة و هو يحكى .. عندما أنتهى سألت عن أبناءها لتقديم العزاء .. أشار البواب إلى الرجل الـذى يرتدى البذلة .. أبنهـا الأكـبر .. تطلعـت إليـه .. صـمتت لبرهـه .. هـزت رأسها قليلاً ثم قالت:

-أول مرة أشوفه .. رغم أنى كنت بزورها يومياً

نظر إليها البواب فى دهشة .. قبل أن يصيح:

-تشوفيه ازاى إذا كان هو مهاجر فى كندا من خمس سنين

لثوان نظرت إليه فى ذهول .. رددت بلا وعى:

-مهاجر .. أزاى

تمالكت نفسها قليلاً .. تطلعت نحوه لبرهه دون أن تتكلم .. سألته بصعوبة:

-لكن عمرها ما قالت أنه مسافر قبل كده .. و أبنها التانى ؟

رد عليها وهو يواصل نقل بعض الكراسى : مسافر فى دولة عربية .. جاله عقد عمل بعد ما سافر أخوه بكام شهر .. نزل بعدها بسنة أتجوز و سافر هو و مراته .. و من ساعتها ما رجعوش ..أبنها الكبير بس لما عرف رجع النهاردة الصبح ، و التانى أحتمال يوصل بكرة .. الله يرحمها كانت طيبة .. ما حدش عارف ليه نزلت أمبارح بنفسها رغم مرضها .. تحبى تروحى تعزى أبنها

حمل الكراسى بعدها متوجهاً سريعاً إلى السرداق تاركاً أياها خلفه بلا أجابة

التحدى

أحـب التفـاؤل و أنظـر للحيـاة دائمـاً بنظـرة أيجابيـة .. عكـس صـديقى المتشائم أغلب الوقت .. جلسنا يوماً فى منـزلى نثرثـر و نـشاهد التلفـاز بعـد سهرة عائلية .. كنت على وشك متابعة نشرة الأخبار عنـدما رأيـت علامـات الأعتراض على وجهـه .. طلب منى تغيير المحطة فوراً .. سألنى بأسـتهجان عن سر متابعتى لنشرات الأخبار بـشغف رغـم مـا تمتلـئ بـه مـن كـوارث و مآسى .. أدرك أن صـديقى متـشائم بطبعـه و إن كـان يفـسر هـذا دائمـاً بأنـه واقعى .. أجبتـه بثقة – لا أعلم مصدرها – بأن ليس كـل مـا تحتويـه النـشرة أخبار سلبية .. فأحياناً تأتى بالعديد من الأخبار الجيدة أيضاً .. طلبـت منـه أن ينظر لنصف الكوب الممتلـئ .. أعتـدل فـى مكانـه و ضـحك بـلا سـبب .. تحدانى ببساطة أن نعثر على خبر واحد جيد فى كل نـشرات الأخبـار التـى يعرضها التلفاز .. كان التحدى مفاجئاً .. خصوصاً من صديقى الذى لم أنجـح يوماً فى هزيمته فـى أى رهـان بيننـا مـن قبـل .. تحمـست للفكـرة و قبلـت التحدى الذى عرضه على الفور

لم يكن يهمنى الرهان بقدر أن أثبت خطأه .. أسترخى على مقعده بهدوء بينما أمسكت ريموت التلفاز بيدى و كأنى أمسك سيفاً أستعداداً لمعركة .. أنطلقت النشرة بالأخبار العامة .. مجموعة منتقاة من الكوارث أحبطتنى .. رأيت أبتسامة سخرية ترتسم على وجهه .. أنباء فيضان تعقبها صور حصرية لزلزال حديث .. علاقات متوترة بين بعض الدول .. مشاهد دمار أخرى و لكن هذه المرة لكوارث بشرية خلفتها حروب دول .. أنتقلت إلى أخبار الأقتصاد المحلية .. عجز و ديون .. تضخم و مؤشرات على فساد مالى يضرب أى جهد لأصلاح أقتصاد متعثر .. رأيته يتابع حماسى بهدوء .. لن أيأس سريعاً .. غيرت المحطة بسرعة على نشرة أخبار أجنبية

طالعت تصريحات عن تدخل أجنبى جديد فى بلد أفريقى تعمه الفوضى .. تعثر مفاجئ لمفاوضات السلام المحتضرة .. ثم القبض عل مجرم خطير أغتصب العديد من النساء .. و أطلاق نار داخل مدرسة .. تحاشيت النظر لوجه صديقى بصعوبة .. لجأت هذه المرة إلى محطة عربية .. مظاهرات يتم قمعها بسرعة .. القبض على عدد من زعماء المعارضة فى بلد آخر .. و أغتيال عالم بارز فى ظروف غامضة .. تطلعت بطرف عينى لصديقى .. أستفزنى هدوئه .. زاد أصرارى .. قلت له بتصميم لا أعلم مصدره أنى لن أترك جهاز التحكم من يدى حتى يسمع أكثر من خبر جيد .. هربت إلى

الأخبار المحلية .. وسط فيضان من الأنباء المثيرة للغثيان .. ألتقطت أذناى أول خبر جيد .. زيادة كبيرة فى الأجور لموظفى الحكومة .. أبتسمت أخيراً .. ألتفت لصديقى .. أشرت إلى الخبر المفرح .. لم يعلق و ظل هادئاً .. لا أعلم لماذا لم يسعده الخبر رغم أن الزيادة ستطول راتبه بأعتباره من موظفى الحكومة .. أخذتنى شهوة الفوز و صممت على تأكيده بالعثور على خبر آخر .. أنتقلت كثيراً بين القنوات حتى عثرت على خبر القبض على مسئول كبير بتهمة الفساد .. قلت له أن هذا الخبر أكثر من جيد .. هز رأسه بالنفى .. قال أن الخبر الجيد هو عدم وجود فساد من الأصل .. لم أجادله رغم عدم موافقتى على رأيه .. تابعت التنقل بين القنوات أكثر .. كدت أيأس .. وصلت لقناة رياضية .. منتخبنا يفوز فى مباراة هامة فى تصفيات المونديال .. يقترب أخيراً من حلم الصعود لكأس العالم بعد أبتعاد طويل .. كدت أقفز فرحاً .. لم يحاول أن يجادلنى هذه المرة .. أكتفى بهز كتفيه بلا مبالاة .. كنت أتمنى أن يعترف بخطأه و لكنه لم يفعل .. سألته ماذا سيقدم لى بعد أن كسبت الرهان .. الخاسر دائماً فى أى تحدى بيننا يختار هدية رمزية لتقديمها للمنتصر .. ضحك قائلاً أنه سيأتينى بهدية " لائقة " فور أن يقبض راتبه الجديد بعد الزيادة .. لم تهمنى الهدية حقاً بقدر أن أرى نظرة الهزيمة فى عينيه لأول مرة أعترافاً بخطأه .. و لكن لدهشتى ظلت أبتسامة

السخرية نفسها مطبوعةعلى وجهه

ذهبت فى اليوم التالى لشراء بعض الأحتياجات .. تفاجئت أن أسعار معظم السلع زادت بنسب متفاوتة .. كيف يحدث أمر كهذا بين يوم و ليلة .. علمت من أحد البائعين أن كبار التجار رفعوا أسعار البضائع أمس بعد علمهم بنبأ زيادة الرواتب .. تباً لهم .. لم أقبض أول راتب بعد الزيادة و الأسعار أنطلقت محلقة عالياً بشكل جنونى .. كان الراتب السابق يكفينى بالكاد أما الآن فأحتاج إلى حسبة معقدة .. تمنيت وقتها لو لم تأت تلك الزيادة المشئومة

بعدها بعدة أيام قرأت أن المسؤول الكبير الذى قبضوا عليه بتهمة الفساد قد أخلت النيابة سبيله بعد عدم ثبوت أدلة كافية عليه .. و رغم حساباته المتضخمة فى البنوك وسمعته السيئة التى تسبقه دائماً .. إلا أنه خرج من القضية بشكل قانونى محترف .. بل وعاد للظهور على مكتبه محمولاً على الأعناق .. و رأيت صورة له فى أحد الجرائد و هو يبتسم أبتسامة واسعة ذكرتنى بأبتسامة صديقى الساخرة

أتصلت به و أتفقت على مقابلته على المقهى .. كان المقهى مزدحماً حيث يتابع الجميع بلهفة المباراة الأخيرة لمنتخبنا فى التصفيات و التى خسرها بكل جدارة وسط سباب الحاضرين .. تحول الحلم إلى كابوس كالعادة .. عندما قابلت صديقى بعد المباراة .. تعمدت أن لا أتكلم عن الرهان السابق

بيننا .. تمنيت أن ينساه تماماً .. لن أستطيع الدخول معه فى جدال سأخسره مجدداً .. أقبل و هو يحمل علبة متوسطة الحجم مغلفة بعناية .. تفاجئت به يناولنى أياها قائلاً أنها الهدية التى وعدنى بها .. فتحت الهدية أمامه بلا كلام .. تناولت من داخل العلبة منفضة سجائر أنيقة .. و كبيرة الحجم بشكل لفت نظرى .. بأستفسار نظرت إليه .. يعلم أننى لا أدخن كثيراً .. بل و بدأت أفكر مؤخراً فى ترك التدخين بشكل نهائى .. قرأ على وجهى علامات الأستفهام .. نظرللهدية ثم قال لى بهدوء أنه يعلم مدى عشقى لمشاهدة التلفاز و بخاصة الأخبار .. فرأى أنى سأحتاجها ! .. تطلعت إليه بصمت .. تفرست فى ملامحه جيداً .. كان جاداً و لم يكن على وجهه أى تعبير من التهكم .. لم أعلق .. أعدت وضع هديته فى العلبة المغلفة بورق الهدايا .. وضعتها بجانبى .. شكرته عليها بأقتضاب .. و ..

لم أعد أتابع نشرات الأخبار من وقتها

الواشى

كنت طوال عمرى واشياً .. لا أخجل من قول هذا .. بعض الناس يطلقـون على جاسوس .. خـائن .. عميـل .. حاقـدون هـم لا أهـتم بهـم .. و لا أهـتم بالألقاب طالما أحصل على ما أريده

كنت قد بدأت أتخلص من تلك الصفة قبل ان أتوجه للكلية ذات يـوم فـى سـنتى الدراسـية الأول هنـاك .. تفاجئـت بمظـاهرات و أضـطرابات تعـم الجامعة .. مجموعات كبيرة من الشباب يحيط بهـم أمـن الجامعـة المتربـص دائماً لأى حركة أحتجاج طلابيـة .. أصوات الطـلاب ترتفـع بحمـاس لتهـز أرجـاء الجامعـة بينمـا شـعاراتهم تنتـشر فـى كـل مكـان .. أرتفعـت حـدة التهديدات قبل أن يحيط جنود الأمن المركـزى الـذين هرعـوا إلى المكـان بكـل مداخل الجامعة و مخارجها .. أطلق الأمن جنوده المسعورة علـى الطـلاب .. أرتفعت الهراوات و العصا الغليظـة تنهـال علـيهم مـن كـل جانـب .. صمد الطلاب قليلاً قبل أن تزيد حدة الضربات .. هرب الكثيرون منهم تحت وطأة

الألم .. كنت وقتها فى مكتب أحد المعيدين .. أنـدفع أحـد الطلبـة للـداخل و الدماء تسيل من رأسه .. كان يلهث و يتضرع إلينا بنظراته .. تطلع إليه المعيد قليلاً بتردد ثم أسرع يطلب منه الأختباء خلف مكتبـه الـضخم .. تنـاهى إلى سمعنا بعدها بقليـل وقـع أقـدام ثقيلـة قبـل أن يركـل أحـدهم البـاب بقـسوة بقدمه .. هب المعيد ناحية الباب ليمنع دخول جنود الأمن المركـزى .. سـأله أحدهم بغلظـة عمـا إذا كـان رأى أحـد الطـلاب الفـارين .. هـز المعيـد رأسـه بالنفى .. جالوا فى المكان بأبصارهم للحظات قبل أن يهموا بالمغادرة .. كنـت أرى من مكانى الطالب و هو يرتجف خوفاً .. كانوا على وشك الخروج بالفعل عندما صحت فجأة .. أشرت لهم بمكان الطالب .. أنقض الجندى بتحفز بعد أن أزاح المعيد بخشونة أوقعته على الأرض .. صـرخ الطالـب فـى فـزع عنـدما جذبوه من ملابسه .. نظر إلى بلا فهم و هم يجروه خارجاً .. وجدتنى أبتـسم بلا وعى .. أبتسامة كبيرة تجمـع بـين الـسخرية و الـشماتة أرتـسمت علـى وجهى فجأة لم أعلم مصدرها و إن أصبحت مميزاً بها بعد ذلـك .. و شـعرت براحة لم أفهمها

بـالطبع أختفـى الطالـب لفـترة طويلـة .. أمـا المعيـد فقـد تم تحويلـه للتحقيق .. لم أحصل على مقابل لما فعلته .. و لكنى لم أهتم .. فـى الواقـع لم يكن الأمر جديداً على .. لم أفهمه .. و لكنه بدأ معى منـذ طفـولتى و كـأننى

ولدت به .. يسرى فى دمى .. كانت أختى دائماً تقول أننى جئت للعالم واشياً .. و لم تكن تغضبنى الكلمة .. فمنذ بدأت أتكلم و أنا أنقل لأبى كل أخبارها .. أو بالأصح أخطائها .. بل أنى كنت أظل أتبعها أحياناً بألحاح حتى أعثر على خطأ ما لأسرع بأبلاغ أبى به بسعادة .. و كانت دوماً تتلقى العقاب بسببى .. و عندما ذهبت للمدرسة تطور الأمر معى من الوشاية بشخص واحد إلى الوشاية بفصل بأكمله .. كان المجال هنا أوسع .. و الأخطاء أكثر .. أتذكر عندما كان يحلو للطلبة أحياناً تقليد المعلمين أو أطلاق أسماء ساخرة عليهم .. كنت أضحك معهم بل و أشاركهم أحياناً .. ثم أتوجه إلى المعلم أو المعلمة فوراً فى أقرب فرصة و بشكل لا يثير الريبة .. لن أنسى كمال أفضل أصدقائى يوم أطلق على معلم اللغة العربية أسم " كعبول " .. كان المعلم طويلاً و سميناً يلقى بالأوامر طوال الحصة دون أن يستطيع مغادرة كرسيه بسبب سمنته .. و كان يهوى دائماً ضرب الأولاد .. تفاجئ كمال فى الحصة التالية بالمدرس يناديه .. أصطحبه خارج الصف .. لم نسمع سوى صوت عصا الأستاذ و هى تلوح فى الهواء و تسقط على يد كمال الذى أخترق صراخه آذاننا .. بالطبع لم يعلم كمال بمن وشى به .. و لكننى واسيته بحرارة كصديق مخلص .. و فى أمتحان اللغة الأنجليزية .. لمحت زميلى مراد يغش من زميلنا محمود المتفوق دائماً .. رأيت محمود يكتب له الأجابات على

المنديل ثم يرسلها له من تحت الطاولـة .. لمحـت المراقبـان و همـا مـشغولان بالكلام .. لم ينتبه أحدهما لما يحدث .. ناديت على المراقب بحجة أنى أريـد سؤاله عن شئ ما غير واضح فـى الأختبـار .. بمجـرد أن أقـترب منـى حتـى تعمدت أن أتكلم همساً .. أشرت له إلى زميلاى الذين يقومـان بـالغش .. لـف المراقب بعدها دورة كاملة حول الصف .. أنتظـر لدقيقـة .. عنـدما هـم مـراد بأخراج المنديل لنقل الأجابات منه .. أنقض عليه فجأة .. و تم تحرير محضر غش فوراً .. و لأول مرة يرسب زميلى محمود .. و رأيته يبكى منهـاراً بعـد الأمتحان حتى كاد يغمى عليه .. نظرت إليه و أرتـسمت علـى وجهـى نفـس الأبتسامة التى عجزت دائماً عن أخفائها رغم محاولاتى

و توقف هذا الأمر قليلاً عندى أيام الثانوية .. و ظننت أننى تخلصت من هذه الصفة .. حتى ذهبت يوماً بعد المدرسة إلى درس الكيمياء .. أحد زملائنا لم يكن موجوداً .. أعتاد أن يتغيب بأستمرار طوال الفترة الأخـيرة .. سـألت عليه .. أخبرونى أنه يهرب من حضورالدرس فيبقى ثمنه لنفسه ليمـرح مـع زملائه على المقهـى .. أنتـابتنى حالـة غريبـة و شـعور بعـدم الأرتيـاح ظـل يلازمنى .. سألت طويلاً حتى عرفت عنـوان بيتـه .. ذهبـت إلى هنـاك علـى الفور و طرقت الباب .. فتح لى أبيه .. عرفته بنفسى بـصفتى صـديق أبنـه و سألته ببراءة عنه .. أخبرنى الأب أنه ربما يكون فـى درس الكيميـاء الآن ..

تصنعت البراءة أكثر وأنا أخبره أننى جئت للتو من درس الكيمياء و لم يكـن هناك .. كما أنه لم يحضر من فترة .. بالطبع تخيلت ما حـدث .. فقـد غـاب زميلى بعدها لفترة .. و أصبح أباه يصطحبه لكل درس بعدها .. بـالطبع علـم أننى السبب وراء هذا .. و لم يغفر لى .. و عندما تقابلنا أرتسمت على وجهى بلا أرادة نفس أبتسامتى الساخرة .. و زال عنى الشعور بعـدم الراحـة الـذى كان يلازمنى .. و توقف الأمر لفترة قبل أن يعود مرة أخرى فى الجامعة

أصـبحت أكثـر أحترافـاً فـى الكليـة .. كنـت معروفـاً لأمـن الكليـة و للأساتذة .. العين المدربة التى ترى بها كل ما لا تستطيع رؤيتـه عـن أنـشطة الطلاب .. و ظل الأمر سراً لفترة قبل أن ينكشف أمرى .. فى الواقع لم أحصل على أى مقابل أو مزايا خاصة نظير عملى .. لكننى كنـت أقـوم بـه بـأخلاص شديد .. فى آخر عام لى فى الجامعة كنت أرى نظرات الكراهيـة و اللـوم مـن الجميع تجاهى .. و لكنى تعودت عليها .. لما يكرهـوننى هـؤلاء الحمقـى .. يرتكب البعض الحماقات ثم ينتابهم الغضب عنـدما يكـشف أحـداً أخطـائهم تلك للعالم .. فما الداعى للقيام بالخطأ من البداية ؟ و هل ذنبى أنهم يسيئون التصرف و السلوك ؟ ثم لماذا يلقون باللوم دائماً على من يفـضح أخطـائهم و لا يلقون باللوم على أنفسهم أبداً لأرتكابها .. من الأولى بألقـاء اللـوم عليـه .. و هكذا تكونت فلسفتى الثابتة فى الحياة .. أنا شخص أساعد النـاس .. فكلمـا

كشفت أخطاء الناس كلما قل تكرارهم لها ، على الأقل خوفاً من عواقبها عند أكتشافها .. و تخرجت من الكلية بتفوق و لكن دون صديق واحد

و أستلمت عملى الجديد .. و نشطت أكثر .. فهنا الوشاية لها ثمن و قيمة .. و هى مفتاح الصعود لأعلى و أكتساب مكانة خاصة لدى رؤسائك فى العمل .. هى أقصر طريق مختصر للنجاح .. و لم يكن أحد هنا يعلم بماضيي الملئ بالوشاية .. و أصبحت أنقل لرؤسائى فى العمل كل ما يدور خلف ظهورهم و كل ما يحكى عنهم وراء الأبواب المغلقة .. و حصلت على أول ترقية فى وقت قياسى .. و أزدادت شهيتى للعمل أكثر .. و تعلمت كيف أسجل كل شئ داخل عقلى .. كل كلمة .. كل تنهيدة .. كل دعاء على شخص ما أو أستمطار باللعنات عليه .. و تعلمت كيف أخرجها فى الوقت المناسب .. الغريب أننى لم أجد صعوبة فى حفظ أى شئ يخص غيرى فى ذاكرتى التى تعانى من الضعف بشكل كبير

و أصبحت مشهوراً عند رؤسائى .. نشطت بشكل أكبر .. و علمنى العمل أن هناك طريقان للوصول إلى قلب أى رئيس .. النفاق و الوشاية .. و لم أكن منافقاً .. و لم أحاول هذا .. بل أننى كنت أكره المنافقين .. الفئة التى تتحصل على مكانة عالية بسهوله دون أن يبذل أحدهم جهداً كالذى أقوم به فى مراقبة الناس .. و تحسنت أحوالى المالية بعد عدد من الحوافز لكفائتى فى

العمل .. و أتاح لى القدر فرصة لم أكن أتوقعها .. كـان هـذا مـن فـترة طويلـة عندما أصبح كرسى الرئاسة فى الشركة التى أعمـل بهـا فارغـاً بعـد أقـتراب شاغل المنصب من المعاش .. كان أمراً نـادراً أن يـصبح المنـصب فارغـاً .. وقـع خلاف شديد بعدها بين أثنان من رؤسائى فى العمل حـول أحقيـة أى منهمـا فى الحصول على أكبر منصب فى الشركة .. الفرصة التى لا تتكرر كثيراً .. و أتجهت الأعين تتابع الصراع الدائر بينهما .. و درات مبـاراة تحـدى خاصـة بين العاملين للرهان على المنصب الشاغر الحائر بين كل منهما .. و أنحاز كل عامل لطرف .. كان التنافس على أشـده بينـهمـا قبـل أن أتـدخل .. كنـت قـد أخترت الطرف الذى أنحاز له .. و لم يكن أنحيازى له بناء على كفاءته فـى العمل أو لأننى توسمت أنه الأفضل .. و لكن فقط لأننى كنت أعمل مع غريمه و أعرف عنه الكثير من الفضائح و الأسرار .. و كان هذا من سـوء حظـه .. أو ربما القدر الذى جعلنـى أعمـل معـه .. و أسـتطعت أن أنقـل كـل أخبـاره إلى منافسه الذى كان ينتظرها بشوق .. و بالطبع أستغل الأخبار و فاز بالمنصب .. بينما توارى غريمه بالأختباء و الأبتعاد عن الشركة نهائيـاً بعـد أن تـسربت فضائحه .. و قربنى المدير الجديد منه .. ظـل محتفظـاً بجميلـى .. و تـصور أننى قمت بهذا أيماناً منى به .. و لم يكن يعلم طبيعتى .. و دعانى يومـاً إلى الغداء فـى بيتـه .. و هنـاك تعرفـت علـى إبنتـه .. تحولـت حيـاتى بعـدها

تماماً .. فى الواقع أحببتها من أول نظرة .. كانت جميلة و رقيقة .. و تبادلنا الأعجاب .. و شجعنى والدها على التقدم رغم أمكانياتى المحدودة مقارنة بهم .. لم أكن غنياً مثلهم و لكننى كنت أتمتع بقدر كبير من الوسامة و ينتظرنى مستقبل كبير و الأهم أننى حزت على ثقة الأب .. و تم الزواج سريعاً

يمكننى القول بعد الزواج أننى أصبحت أكثر نفوذاً و قوة .. ولم أعد أخاف أحد .. بأستثناء زوجتى .. ليس فقط لأننى أكتشفت للأسف أنها سريعة الغضب و متهورة .. أو لأن والدها هو مديرى .. و لكن لأنها أيضاً تشارك بنسبة كبيرة فى مصروف البيت بعد أن خصص لها والدها مبلغاً شهرياً حتى يمكنها أن تعيش فى نفس المستوى الذى أعتادته .. و أنجبنا ولداً جميلاً بعد عام .. و أنشغلت هى به .. و أتاح لى فرصة أنشغالها التحرك بحرية أكبر.. كنت قد أكتسبت مكانة خاصة داخل العمل و خارجه .. تعرفت على أوساط جديدة و كونت علاقات متعددة .. دخلت عوالم جديدة لم أكن أتخيلها و أختلطت بها .. و بدأت أتعرف على لذات أخرى فى الحياة غير الوشاية و النفوذ .. ببساطة تعرفت على لذة السعى وراء النساء .. كانت بداية تعرفى على هذا العالم من خلال عملى فى الشركة و أختلاطى بالعملاء .. ثم تطورت علاقاتى و تشعبت .. و أصبح لى أحياناً أكثر من

عشيقة .. و مرت سنوات على هذا الحال .. و كنت حريصاً على أخفاء رائحة هذه العلاقات حتى لا تصل لأنف أحد .. و بالأخص زوجتى .. و كنت ناجحاً فى الأمر .. كنت أدرك تماماً مدى غيرة زوجتى الشديدة و عصبيتها .. و أن انكشاف أمرى معناه نهاية مستقبلى .. كانت مغامراتى النسائية مخاطرة بلك تأكيد .. و هذا ما زاد من لذتها

أستيقظت ذات يوم منتعشاً .. بعثت لى عشيقتى صباحاً برسالة تذكرنى بموعدى معها الليلة .. تذكرت أن لدى موعد عمل هام فى نفس التوقيت .. أضطررت للأتصال بها لتأخير الموعد قليلاً و تغيير مكان السهرة .. عادة لا أقوم بأى أتصالات من البيت من باب الأحتياط .. و لكنى كنت قد تأكدت أن زوجتى فى الحمام و أبنى منشغل بأستذكار دروسه بجوارى .. عندما رجعت فى المساء بعد أمسية رائعة .. تفاجئت بزوجتى تقف فى أنتظارى .. كنت أجدها عادة نائمة فى مثل هذا الوقت .. تظاهرت بالبراءة .. باغتتنى بسؤالها عن المرأة التى سهرت معها .. أرتسمت على وجهى علامات الدهشة و الأنكار .. كنت معتاداً على هذا بأى حال .. تنتابها أحياناً نوبات من الشك و لكنى أستطيع القضاء عليها بسهولة .. كنت على وشك نفى التهمة عندما باغتتنى بما لم أتوقعه .. تفاجئت بها تعرف أسم عشيقتى و المكان الذى سهرنا فيه .. بل و بموعد لقائنا .. وقفت تنتظر ردى و الشرر يتطاير من

عينيها .. شلتنى المفاجأة عن التفكير .. هل كانت تراقبنى .. هل كلفت أحد بملاحقتي .. كيف عرفت بكل تلك التفاصيل .. هل وشى بى أحد .. بدأت أرى سحب الغضب تتجمع على جبينها .. أعلم جيداً أن مستقبلى قد يجرفه فيضان عصبيتها الآن .. لا أعلم ما الذى عرفته أيضاً بعد أن علمت بكل تلك التفاصيل و لهذا أطبقت فمى ولم أستطع الكذب .. وقفت كورقة فى مهب الريح .. نظرت للأرض مذنباً بلا كلام أستعد للعاصفة القادمة التى ستقتلعنى بلا رحمة .. لمحت أبنى الصغير ذو الخمس أعوام .. لأول مرة ألاحظ وجوده معنا منذ بدأ النقاش .. نظرت إليه بحب و أشفاق .. لم أرغب أن يشهد موقف كهذا .. كان يقف خلف والدته تماماً .. و رغم ما أمر به و ما ينتظرنى فى تلك اللحظه .. لاحظت شيئاً غريباً دفعنى لأن أدقق النظر فيه .. رأيته و قد أرتسمت على وجهه أبتسامة غريبة .. أبتسامة تجمع بين السخرية و الشماتة و أحتلت جزء كبير من وجهه الطفولى المحبب البرئ .. أبتسامة أعرفها جيداً بالتأكيد

الوحش

كنت أصعد الهرم و أنا أمسك يدها .. من ورائنا بـاقى الطـلاب و خلفهـم الأستاذ عبود .. ترددت عند المدخل و توقفـت تمامـاً .. خاصـة عنـدما رأيـت المكان شبه مظلم .. لاحظت المعلمة أرتباكى .. حاولت أن تتقدم و لكنى أفلـت يدها و تراجعت خطوة للخلـف .. تطلعـت إلى بدهـشة .. أنحنـت و جلـست على ركبتيها و أنا أنظر إلى الأرض بخوف .. بيـدها رفعـت وجهـى إليهـا و أبتسمت .. سألتنى عن سبب توقفى بنبرات هادئة .. ترددت قليلاً و أنا أرى الأطفال من خلفى و قد بدأ بعضهم فى السخرية منى .. أخبرتـها بخجل أنـى أخاف من الظلام .. ضحكت برفـق .. أحتـضنتى لبرهـة قبـل أن تـأمر بـاقى الطلاب بالدخول مع الأستاذ عبود و أنتظرت هى فى الخارج معى .. جلـست علـى صـخرة بجـوارى و هـى تـدارى وجههـا الجميـل مـن أشـعة الـشمس الحارقة .. و أحتضنتنى بجوارها

كنا فى رحلة مدرسية للهرم .. فرحت جداً عندما أعلنوا عن الرحلة فـى

مدرستنا .. عرفت بعدها أنها مخصصة لطلاب الصف الرابع فقط بينما ما زلت فى الصف الثانى .. رأيت أخى و هو يستعد للرحلة فتملكنى غيظ مفاجئ .. كثيراً ما تمنيت زيارة الأهرامات و رؤية هذا التمثال الذى يطلقون عليه أبو الهول .. خصوصاً أن معلمة الرياضيات كانت تصفنى دائماً بأبو الهول عندما أجلس ساكنة طوال الحصة و لا أشارك فى أى نشاط رغم تفوقى .. ظللت أسبوعاً لا أنام و حولت حياة أسرتى إلى جحيم و أنا أبكى من عدم ذهابى .. حاولوا أقناعى كثيراً أن بأمكانى الذهاب للرحلة لاحقاً عندما أكبر و لكنى لم أصدقهم .. لم يجد أبى مفراً من الذهاب للمدرسة .. طلب من أدارة المدرسة السماح لى بالذهاب للرحلة مع أخى الأكبر رغم معارضة أمى .. أحب أبى لأنه يدللنى كثيراً و يلبى معظم طلباتى التى تبدو غريبة .. و لأن مدير المدرسة صديقه فوافق على منحى هذا الأستثناء .. ما زاد من سعادتى هو علمى بوجود مس أحلام فى الرحلة .. أعرفها جيداً و أحبها و هى أيضاً تحبنى .. قامت بتدريسى من قبل فى الصف الأول و لكنها أنتقلت هذا العام إلى الصف الرابع .. لم أكن أذكى تلامذتها و لكنى كنت متفوقة .. أشارك كثيراً فى الأذاعة و يقولون أنى موهوبه و صوتى رائع .. أحفظ الأناشيد بسرعة و أغنيها فى برنامج الصباح بثقة

رأيت أبو الهول .. لم أتوقعه بهذه الضخامة .. تساءلت لما تشبهنى

معلمتى به رغم أنى لست ضخمة مثله .. أندهشت عندما رأيته بلا أنف و تحسست أنفى بلا وعى .. أقتربنا من الهرم الأكبر .. أستقبلنا مرشد ليقودنا فى رحلة صعودنا للهرم لزيارته من الداخل

لم أكن أعلم أنى سأزور هذا المكان المرعب من الداخل .. لو كنت أعلم لما ألححت فى الذهاب .. مؤكد أن الهرم مظلم لا مصدر للضوء بداخله .. يقولون عنى جريئة .. لا أخاف من الكلاب أو القطط .. لا أخشى التعامل مع الغرباء ، و لا أرتبك عند الغناء فى أذاعة المدرسة أمام التلاميذ .. حتى عندما رأيت فأراً فى منزلى لم أخاف منه أو أقفز رعباً فوق الأريكة مثل أمى .. و لكن الظلام شئ آخر .. أرتعب بشدة إذا أقتربت من مكان مظلم .. لا أنام ليلاً إلا فى حضن أبى أو أمى .. عندما تنقطع الكهرباء فى المنزل أظل أصرخ حتى تأتى .. أنزل أحياناً للعب مع صديقاتى أمام البناية و لكن عندما أرى مدخل البناية مظلماً أظل جالسة على الدرج بخوف حتى أسمع صوت شخص يهبط الدرج فأسير خلفه حتى أتجاوز المدخل .. ربما أنتظر ساعات حتى تمل البنات و تعود كل واحدة إلى بيتها .. لا أعلم لماذا أخاف من الظلام .. ربما بسبب كل تلك الحكايات الغريبة التى سمعتها .. و كل تلك الكائنات المشوهة التى كانوا يهددونها بها عندما كنا صغاراً

لا أتصور وجود هذه الكائنات سوى فى الظلام .. أراها بكل وضوح .. أرى

أشكالها المرعبة و هى تقترب منى .. بعضهم بلا سيقان و بـأذرع مخيفـة .. أحدهم بخاصة مخيف و يمتلك عيناً واحـدة فقـط تحـدق فـى و هـى تـضحك بجنون فتصيب جسدى بالشلل .. أسمعها تتحرك بوضوح فـى الظـلام و هـى تتهامس و تشير نحوى .. ضحيتها التالية .. أكاد أجن و أنا أتصور ما الـذى يمكنها فعله عند الأمساك بى .. حتى عندما أغمض عينى فـى الظـلام أحـس بها تلتف حولى .. أشعر بأصابعها النحيلة تلامس شعرى فـأنكمش أكثـر .. لها أظافر طويلة متـسخة و أيـدى نحيفـة مخيفـة .. يقـشعر جـسدى كلـه و يرتجف عندما أحس بها بجوارى .. لا يحمينى منهـا أحـد ، حتـى عنـدما أكون مـع أبـى أو أمـى .. تتـسلل بيـنهم بـسهولة تامـة .. الغريـب أنهـم لا يستطيعون رؤيتها و لكنـى أراهـا جيـداً .. لا أعلـم لمـاذا أراهـا أنـا فقـط .. لا يصدقوننى عندما أصف لهم هذه الكائنات .. على الرغم مـن أنـى أصـفها كمـا تتراءى لى تماماً .. الغريب أنها تختفى عنـدما يعـود الـضوء و لا تظهـر .. و لهذا أعتاد أبى أن يترك ضوء الصالة مناراً طوال الليل فيغمر جزء منه غرفـة النوم حتى أستطيع النوم بجوارهما بسهولة بالرغم من أن الضوء يضايقه

أفقت على صوت المعلمة و هى تسألنى عن سبب خوفى .. حكيت لها بكل صراحة عن مخاوفى .. أستمعت إلى و هى تهز رأسها بهدوء و عندما أنتهيت أبتسمت بتفهم .. كنت أعلم أنها ستفهمنى .. أجلستنى بجوارها .. تكلمـت

بثقة .. لم تنفى وجود هذه الكائنات .. لو فعلت لما صدقتها .. و لم تؤكد وجودها ، و لكنها أخبرتنى أننى أقوى منها .. أستطيع أن أهزمها بسهولة .. سألتنى إن كانوا أقوياء بالفعل كما أتصور فلما لم يختطفوننى من قبل عندما كانت تتاح لهم الفرص .. لم أجد أجابة .. قالت أنهم لا يستطيعون أيذاء أى شخص .. مثلهم بالضبط مثل الشخصيات الشريرة التى تعرض فى التلفاز .. لا يستطيعون الخروج من شاشة التلفاز لأذيتى .. أثق بمعلمتى كثيراً و لكنى ما زلت خائفة .. فكرت هى لدقيقة ثم طلبت منى أن أغمض عينى .. أطعتها على الفور .. طلبت منى أن أحلم بشئ تمنيت كثيراً الحصول عليه .. أو أتخيل مكان جميل أرغب بشدة بالتواجد فيه .. للحظات لم أفلح ثم بدأت أتخيل حديقة كبيرة مليئة بالأزهار و الألعاب و الحلوى .. من حولى بعض صديقاتى المقربات و نحن نمرح بجوار نافورة مياة كبيرة ينتشر الرذاذ منها علينا .. وصفت لها ما أحلم به و بدون أن أدرى وجدت نفسى أبتسم .. حلمت بوجود أمى و أبى بجانبى ثم محيتهما من الحلم بسرعة .. أشعر بالراحة و أنا أقفز من مكان لمكان و أفعل كل شئ دون رقابة .. أستطيع أن ألتهم كل هذه الحلوى و ألعب دون أن تذكرنى أمى بحل واجباتى .. أحببت الأمر .. عندما فتحت عينى كنت سعيدة لهذا الحلم الرائع و حكيت لها عنه بحماس .. ربتت على كتفى بحنان .. أسعدها

كلامى .. قالت أن هذا دليل على أن الظلام ليس بالسئ دائماً .. عندما أغمضت عينى لم أكن أرى الضوء و لكنى كنت فى عالم أجمل .. و لم أصادف أى كائنات مخيفة .. أفهمتنى أنى أستطيع ان أعيش فى عالم جميل من الخيال أبنيه و لا يتحكم به شخص سواى .. طلبت منى عند شعورى بالخوف أن أغمض عينى فقط و أعود لأحلم بأى عالم جميل أتمناه .. زال شعور القلق بداخلى و أحسست بالذنب لأنى كنت أجبن من اللازم من قبل .. أمسكت يدى مرة أخرى و سألتنى إذا كنت مستعدة لدخول الهرم .. ترددت للحظة ثم وافقت بجرأة و أخبرتها أننى لم أعد أخاف من الظلام .. لم أعد أراه سيئاً مثلما أعتدت .. مشيت معها بأستسلام بعد أن تجرأت قليلاً

كان الطلاب فى أنتظارنا و معهم الدليل عندما دخلنا .. المكان ضيق و لكنه مضاء بالعديد من مصابيح الأضاءة و لم يكن مظلماً مثلما تخيلت .. تعمقنا فى الداخل .. أستأذن الدليل منا للحظات و تركنا نتجول .. مشيت أنا و المعلمة فى مؤخرة الصف و معنا الأستاذ بدوى .. كان الأولاد يدونون كل شئ يرونه .. فالزيارة فى الأصل لم تكن سوى رحلة تعليمية حيث يدرسون كل شئ عن الهرم فى أحد وحدات المنهج .. مر الوقت بسرعة و نحن نستمتع رغم ضيق المكان و نقص الهواء .. أبتعدنا عن المدخل و صرنا فى عمق المكان .. رأيت سائح أو أثنان .. أول مرة أرى سائحين .. كان منظرهم طريفاً .. مرت

نصف ساعة و بدأنا نستعد للمغادرة .. عندما حدث أمر ما فجأة .. رأينا مصابيح الأضاءة تومض مرتان أو ثلاث .. تسمرنا فى أماكننا .. ثم غرق المكان فجأة فى الظلام .. سمعنا صوت الأستاذ بدوى يطلب من التلاميذ بصوت عالى البقاء كما هم فى أماكنهم بينما أرتفع صراخ بعضهم .. ساد الهرج للحظات قبل أن يختفى تدريجياً .. يبدو أن الجميع ألتزم بتعليمات المعلم نتيجة للخوف .. سمعنا بكاء البعض .. و بعضهم كان يتنفس بصعوبة .. أدرك هذا من صوت أنفاسهم السريعة المتلاحقة .. تحسست بيدى فلامست شخصاً بجوارى قفز صارخاً من الرعب عندما لمسته .. كان تلميذ آخر .. صوت الأستاذ يعلو فى المكان و هو يطمئن الطلاب بنبرات قوية .. سمعنا صوت الدليل يأتى من مكان بعيد يخبرنا بوجود مشكلة فى الكهرباء سيتم حلها سريعاً .. طلب منا البقاء فى أماكننا .. لماذا يكررون هذا الطلب الغبى .. من يجرؤ على التحرك فى هذا الظلام التام .. كان الظلام حالكاً حقاً .. أعمق من أى ظلام مررت به من قبل .. لم أستطع حتى رؤية أصابع يدى .. بحثت بيدى عن المعلمة و لكنى لم أجدها بجوارى .. يدى أفلتتها بدون قصد لحظة أنقطاع الكهرباء .. يبدو أنها ذهبت لتساعد الأستاذ بدوى .. شعرت بالضعف بدونها .. أحسست بالخوف يتسرب إلى سريعاً .. بدأت أرى هذه العين التى أعرفها .. و تلك الكائنات .. هذه المرة الدماء تسيل من على جانبى فمها و قد

اكتسبت أنياباً جديدة .. دنت منى و هى ترفع أصابعها الرفيعة المخيفـة فـى الهواء .. تراجعت للخلف حتى أصطدمت بجـدار .. أنكمـشت فـى رعـب و غطيت وجهى .. أقتربت منى أكثر .. جلست أرتعش بأستسلام .. لم يخـرج صوتى .. أنتظرت للحظات بـلا مقاومـة أن تلتهمنـى .. و لكنهـا لم تفعـل .. رفعت رأسى بتردد و نظرت إليها .. كانت مخيفة كما هـى و لكنـى أدركـت أنها عاجزة عن أيذائى .. لا تفعل أكثر من أثارة خوفى .. هل هى ضعيفة حقاً كما قالت معلمتى .. بدأت أشك بقـدرتها علـى ترهيبـى .. أغمـضت عينـى و سرحت أحاول بصعوبة تخيل مكانى المفـضل .. فـشلت لـدقائق قبـل أن أهـدأ تماماً .. أرتسمت أمامى الأشجار أولاً ثم طريق صغير .. بدأت الأزهار تنبـت فى كل مكان و سمعت ضحكات صديقاتى و هن يلعبن بمـرح فـى الحديقـة .. رفعت رأسى فرأيت الشمس و السحب الجميلة .. بدأت أدندن بأغنية أحبها حفظتها مؤخراً بعد أن رأيتها فى التلفاز أكثر من عشرين مـرة .. مـع الغنـاء أحسست بالمرح .. أنطلقت فى الحديقة ألعب و أمرح .. هذه المـرة قفـزت فـى النافورة و بللت ملابسى .. مرت دقائق و أنا فى عالم آخر يتسلل إليه أحيانـاً بكاء طفل أو صراخ طفل آخر .. و لكنى لم أهتم و واصلت اللعب بحماس .. لم أعد أشعر بما حولى .. بل بدأت أتساءل لماذا لا يستمتع هـؤلاء الحمقـى معـى بهذا المكان الجميل و يكفوا عن أزعاجى بالبكاء .. وجدتنى أبتسم بلا وعى ..

سرحت فى عالم أمتلكتـه لـدقائق .. قبـل أن أشـعر بحركـة قويـة أضـطرتنى لمغادرته مؤقتاً .. هل جاءت وحوش جديدة لمهـاجمتى .. لا .. رأيـت الـضوء يعود للمكان .. تنبهـت و تطلعـت حـولى .. معظـم الأطفـال كـانوا يفترشـون الأرض و بعضهم ملتصق بالجدار و الفزع واضح على وجوههم .. قـاموا فـوراً عند عودة سريان الطاقة .. صاح بعضهم فى مرح .. و مسح بعضهم دموعـه .. بدأ الأستاذ بدوى ينظم الطلاب فى صفين لسرعة مغادرة المكان .. تلفت أبحث عن أخى .. وجدته ينظر إلى بتعجب .. لم ألاحظ أنى وسط هذه الظروف كنت ما زلت مبتسمة و أدنـدن ببـساطة أغنيتـى المفـضلة بـصوت مـسموع .. بـدأوا يتحركون سريعاً فى طريقهم للخارج بعدما عاد المرشد سـريعاً ليـدلهم علـى المخرج .. و لكن أين مس أحلام .. نساها الجميع للحظات .. كانت بجـوارى عند أنقطاع الكهرباء .. تلفت أبحث عنهـا .. فـى ركـن مظلـم لمحـت خيـال يجلس على بعـد أمتـار قليلـة .. و لكـن الخيـال لم يكـن يتحـرك .. ناديـت المرشد .. أقتربنا منه .. سلط عليه المرشد ضوء كشاف فى يده .. رأينا الجالس بوضوح .. أمرأة ما .. واضح من ملابسها ولكنها تخفى معظم وجهها .. ربمـا سائحة مذعورة .. تجلس على الأرض و قـد ضـمت ركبتاهـا علـى صـدرها .. تلف يدها حول ساقيها بقوة و تنظر إلينا برعب و نحن نواصل تسليط الـضوء عليها .. سمعت صوت أسنانها تصطك بينما جسمها يرتجـف بقـوة .. تنظـر

حولها بهلع و تخفى وجهها و كأنها تحمى نفسها من كائنات وهمية تراها .. وقفنا على بعد خطوات منها .. رفعت عيناها بعدها للحظة تحدق لشئ ما فى الظلام بذعر حقيقى و كأنه سيهاجمها .. تعرفت عليها وقتها

تأكدت أنها هى .. لم تكن سائحة بل كانت معلمتى .. فى حالة رعب تامة .. كانت مس أحلام أخرى

الدور

سألت صديقى الممثل : ما أغرب حكاية مرت بك فى حياتك ؟

قفز السؤال إلى ذهنى فجأة فخرج بلا حساب .. سكت قليلاً سارحاً مع تيار أفكاره .. نظر لنا نظرة طويلة .. نفس شلة الأنس القديمة التى تتكون منى و ثلاثة من أصدقائنا .. نجتمع كل فترة فى منزله .. سحب نفساً عميقاً من الشيشة المستقرة أمامه قبل أن يقول بهدوء:

-تعلم من سنوات طويلة كنت ممثل مغمور .. لم يكن أحد يسمع عنه .. وقتها كنت أسكن فى بيت قديم متهالك .. صاحبته أرملة صغيرة فى السن .. لا زلت أتذكرها جيداً حتى الآن

سكت للحظات أكتسى وجهه خلالها بأبتسامة صافية قبل أن يكمل:

أنا فنان سافرت حول العالم .. عرفت نساء بعدد شعر رأسى .. مغامراتى أكثر من أن أتذكرها .. بحكم عملى تعاملت مع أجمل ممثلات .. فنانات .. عارضات أزياء .. لكنى لم أقابل يوماً من يضاهى جمالها .. جمال غريب من

النوع الذى تقابله مرة واحدة فى حياتك .. إلى اليوم ما زلت أتذكرها و كأن صورتها نقشت بألوان لا تمحى على جدران ذاكرتى .. أحياناً عندما أؤدى مشهد رومانسى أتخيلها فقط أمامى فتنساب مشاعرى و أؤدى الدور بسلاسة لا أعهدها

سألته مندهشاً : لهذه الدرجة ؟

رد قائلاً و قد أعتدل فى جلسته : طبعاً .. كيف أستطيع أن أصف جمالها .. جمال ربانى نادر أن تراه فى حياتك .. صورة مثالية لن ترسمها حتى فى خيالك .. لو رأيتها لعرفت .. صغيرة هى .. لم تتجاوز الثالثة و العشرين .. تزوجت من رجل كبير فى السن فى مثل عمر أبيها .. تاجر كبير من الأرياف رآها فى زيارة لقريته فأعجبته .. والدها فلاح بسيط و أخوتها بعدد أصابع اليدين .. تقدم لخطبتها مباشرة فلم تسع الفرحة والدها الفقير .. تزوجها رغم أنه متزوج وبعض أولاده يفوقونه طولاً و يتجاوزونها عمراً.. جاء بها لبيته القديم بعيداً عن زوجته الأولى .. بعد سنتين مات .. ورثت هى منه البيت القديم و إن كان يوجد خلاف بينها و بين أولاد زوجها .. أستأجرت شقة منها .. لم أكن أراها كثيراً فى البداية حيث كنت أعود من عملى فى المسرح كل ليلة متأخراً .. و أيضاً لأننى كنت أتأخر دوماً فى دفع الأيجار .. لكن فى الفترة الأخيرة بدأت أترقبها و أحاول الأقتراب منها ..

كنت أنتهز أى فرصة لأكلمها .. أرسم و أخطط للأيقاع بها كما لو كانت حياتى تتوقف على هذا الأمر .. مرت أسابيع و بدأت الألفة تزيد بيننا بشكل كبير لكنى لم أستطع أيقاعها فى شباكى .. و إن كنت أنتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر .. و لم أحكى لها طبعاً عن عملى كممثل فاشل

عدت يوماً من المسرح متأخراً .. أحد أصدقائى دعانى لسهرة خاصة .. وافقت رغم أنى توقفت عن السهرات الحمراء من فترة .. على مدخل البيت لمحت شبح عيد الشحات .. يجلس متدثراً ببطانية قديمة و هو يرتجف من البرد .. عادة كنت أصرخ فيه و أسبه عندما يظهر لى كعفاريت آخر الليل على مدخل البيت و أنا أترنح فى عودتى المتأخرة إلى منزلى .. أحياناً كنت أدفعه بقدمى بعيداً بقسوة .. لا أدرى لما يومها أحسست بالشفقة نحوه .. عبثت فى محفظتى و أخرجت نصف ما معى من نقود قليلة و مددت يدى لأعطيها له .. رفع عينيه يرى من يحسن إليه و هو يدعو له .. عندما رآنى تملكه الرعب فوراً و أسرع بالزحف بعيداً عنى .. رميت النقود بجانبه و أنا أطمئنه .. أرتقيت السلم و هو يتابعنى بنظراته دهشاً .. دخلت البيت بسرعة و رميت نفسى على أقرب كرسى .. رحت فى غيبوبة عميقة أستيقظت منها فجأة على صوت طرق على الباب .. ظننت أنه من أثر الدخان .. أغمضت عينى مرة ثانية لكن عاد الطرق بعدها بدقيقة .. طرق خفيف على الباب تظن من خلاله

أن الطارق طفل صغير .. نهضت بصعوبة .. تساءلت مستغرباً عـن القـادم فـى مثل ذلك الوقت المتأخر .. فتحت الباب و أنا أتثاءب .. و بمجـرد أن رأيتهـا أمامى .. طار النوم من عيني فى لحظة .. تبخرت سيجارة الحشيش و معهـا كل ما شربته فى ثوانى .. كانت هى من تقف على الباب .. لم أصدق عينى .. ترتـدى فـستان طويـل منـزلى مـن الـصوف و فوقـه شـال أسـود ثقيـل يغطـى كتفيها .. تنفخ فى يدها من الـبرد و هـى تتلفـت حولهـا قلـيلاً .. رغـم كـل خبرتى فى عالم النساء أرتبكت .. للحظات لم أدرى كيف أتـصرف .. و هـى أيضاً لاحظت ذلك فتراجعت خطوة للخلف .. أعتذرت عن مجيئها فى وقـت غير مناسب .. تكلمت بسرعة عن سبب زيارتها المفاجئـة .. مـشكلة مـا فـى الحمام عندى حيث يتسرب الماء منه إلى شقة جارى الذى يقطن أسفل منى كما زعمت .. قالت أنهـا أحـضرت الـسباك عـدة مـرات لمعالجـة المـشكلة دون أن يجدنى .. طلبت منى بأرتباك أن أترك لديها نسخة مـن مفتـاح الـشقة حتـى يستطيع السباك مواصلة عمله عندما يأتى فى المرة القادمة .. تراجعت بعـدها خطوات للوراء بأنتظار ردى

تخيلت أن كلامها مجرد حجة لتقابلنى .. كان يمكن أن تنتظر للصباح .. أستردت بعض وعيى و صممت على أنتهاز الفرصـة .. فتحـت البـاب أكثـر طالباً منها أن تدخل إلى أن أبحث عن المفتاح الذى أنسى دوماً مكانه .. وقفـت

لثوان مترددة .. كان الجو بارداً خارج الشقة و هى تضم الشال حـول كتفيهـا بقوة لتقاوم برودة الجو .. تقدمت نحو الشقة و لكنها توقفت خلف الباب من الداخل بخطوة .. أشرت إلى كرسى فـى الـصالة كـى أقطـع عليهـا الطريـق .. عندما رأت أصرارى دخلت مضطرة .. و بمجرد أن جلست حتى أغلقت الباب

جلست على طرف الكرسى .. تتلفـت حولهـا .. تظـاهرت بالبحـث عـن المفتاح الذى كنت أنسى مكانه فعلاً .. أطحـت بزجاجـة بـيرة كانـت تـستقر بأهمال وسط الصالة إلى وراء الكرسى .. ذهبت للمطيخ بعد أن عرضـت عليهـا أعداد كوب من الشاى .. رفضت فى البداية و لكنى ألححت عليها .. بصراحة أنا الذى كنت بحاجة للشاى لأفيق .. عندما رجعت أمسكت بكوب الشاى فى يدها دون أن تشربه .. تستمد مـن حرارتـه بعـض الـدفء .. بـدأت بـالكلام معها .. كلام عام فى البداية عن البيت و الجيران .. كانت ترد بتحفظ .. بعد قليل تفاجئت بها تسألنى : أنت ممثل ؟

ضحكت ضحكة قصيرة .. قلت لها بخجل : يعنى .. أدوار ثانية

رأيت عيناها تلمعان .. أبتسمت بتلقائية جميلة .. أخبرتنى أنها تحـب التمثيل جداً .. أردفت بحماس : تمنيت كثيراً أن أكـون ممثلـة .. لم أشـاهد أى أفلام فى حيـاتى فـى القريـة لأننـا لم نمتلـك تلفـاز فـى البيـت .. لكنـى شـاهدت الكـثير عنـدما جئـت إلى هنـا .. المرحـوم أصـطحبنى مـرة واحـدة

للسينما .. لكنى لم أشاهد لك أى فيلم

قالت الجملة الأخيرة بخجل .. سكتت لدقيقة .. أخبرتها أنى ممثل مسرحى و ليس لى أدوار تذكر فى السينما .. هزت رأسها متفهمة .. تبادلنا الحديث بعدها .. أو بمعنى أصح هى تتكلم و أنا أستمع .. تركت لها الفرصة لتعبر عما بداخلها .. كان رأيى دائماً أن أكبر عيب فى المرأة لسانها .. و أنها عندما تفتح فمها تفقد نصف جمالها .. لكن هى كانت مختلفة .. أجمل مائة مرة و هى تتكلم .. تحكى ببراءة طفلة صغيرة .. تضحك بدون قصد عندما تتكلم عن موقف طريف .. و عندما يأتى ذكر مشكلة تنظر للأرض بخوف غريزى .. تحرك يدها كثيراً فى تناغم عندما تتحدث فتكمل حركة يدها كلامها .. لو رأيتها لشعرت أنك تقف أمام لوحة جميلة .. كل شئ فيها جذاب .. نبرة صوتها .. تعبيرات وجهها .. عفويتها .. أسندت رأسى على يدى أستمتع بجمال تلك السيمفونية المتكاملة دون أن أقاطعها برغم أن معظم كلامها كان عن مشاكلها .. تكلمت عن زوجها الذى رحل بعد أن أوصى لها بالبيت القديم فى وصيته .. لكن أولاده من زوجته الأولى ما زالوا يهددونها .. قاموا برفع قضية ضدها بزعم أن والدهم لم يكن فى كامل وعيه عندما كتب وصيته .. لو كسبوا القضية ستجد نفسها فى الشارع خاصة بعد وفاة والدها .. ظهر الحزن واضحاً فى صوتها.. رأيت بعض الدموع تترقرق

فى عينيها .. أبعد هى ما تكون عن المـشاكل .. لا تـدرى لماذا يكرههـا أولاد زوجها .. تتمنى أحياناً لو تترك لهم البيت و تهرب بعيداً .. زوجهـا تـرك لها أيضاً بعض الذهب و النقود تستطيع أن تبدأ بهم حياة جديدة فى أى مكان آخر .. لكنها تخاف كثيراً من الأقدام على خطوة كتلك بسبب قلة خبرتها .. حياتها أنحصرت من بيت أبيها إلى بيت زوجها .. مر الوقت سـريعاً دون أن أشعر .. بعدها بفترة أطرقت للأرض بخجل و أعتذرت لأنها تكلمت كثيراً .. سألتنى بعدها عن المسرح و التمثيل .. لاحظت أنها قـد خلعـت الـشال الـذى على كتفها بعد أن شعرت ببعض الألفة .. ناولتها جريدة قديمة تظهر فيهـا صورة لى مع ممثل معروف للمسرحية التى أمثلها حاليـاً .. لم تتعـرف علـى طبعاً .. كنت أرتدى زي أحد الشيوخ .. سألتنى بحماس عنـدما رأت الـصورة عن الدور الذى أقوم به

فى هذه الفترة كنت فى بداية طريقى الحقيقى نحو النجـاح .. لأول مـرة أحصل على دور كبير .. دور ثـان فـى مـسرحية جديـدة لكنـه دور محـورى دفعنى نجاحى فيه إلى بداية طريق الشهرة وقتها .. كنـت أتقمـص شخـصية شيخ مناضل تحدى سلطان ظالم بشجاعة و مـات شـهيداً يـدافع عـن رأيـه .. شخصية تاريخية مشهورة .. لا تضحك .. أعلم ما يدور فى ذهنك .. ذئب فى ملابس شيخ .. تناقض ساخر .. و لكنه كان أكبر دور أمثله وقتها منذ بـدأت

مشوار التمثيل من سنين طويلة .. قرأت كثيراً عن ذلك الشيخ .. أحضرت كل الكتب و المراجع التى تتناول سيرته .. أكتشفت أنه عالم كبير لم أكن أسمع عنه من قبل .. بهرنى بأرائه و علمه .. أحترمته جداً عندما قرأت عن مواقفه الجريئة و شجاعته .. بدأت أتدرب على الدور .. كنت أقف أمام المرآة يومياً محاولاً أتقان الدور .. أعيد المشاهد أكثر من مرة على المسرح و قمت بالكثير من البروفات لدرجة أنى حفظت معظم دورى غيباً و لم أعد بحاجة إلى ملقن

ضحك فجأة و هو يقول : آه لو رأيتنى بالجلباب الأبيض و العباءة .. و عمة الرأس و اللحية السوداء التى يغزوها الشعر الأبيض .. لم يكن أحد ليعرفنى .. حتى المخرج عندما رآنى أول مرة بالزى لم يتمالك نفسه من الضحك صائحاً : من يراك الآن يظن أنك شيخ .. و لا يدرى أنك سكير و ذئب نساء . لكنه كان مقتنع جداً بى .. كنت أنام أحلم بالدور و أستيقظ لأتدرب على كلمة .. كل تعبير .. كل أيماءة .. و كل حركة .. يقولون أحياناً أن الممثل يندمج فى الدور الذى يمثله فينسى ذاته .. يعيش الدور و يتنفسه .. يتقمصه بكل حواسه .. لدرجة أنه يؤثر عليه فى عالم الواقع .. أتذكر ممثل معنا ظل يقوم بدور الملك فى مسرحية لفترة طويلة .. حتى أنه عندما يسكر و يضايقه أحد كان يتوهم أننا حراسه فيشير لنا قائلاً : أقتلوا هذا الوغد .. و ممثلة أخرى كانت تذرف بالفعل دموعاً حقيقية عندما يقتل أبنها فى أحد المشاهد

على المسرح .. لم أشعر من قبل بأحساس التقمص هذا .. أخرج من المسرح عادة فأنسى كل شئ و لا أفكر سوى فى النساء و الدخان .. و لكنى عرفت معنى التقمص لأول مرة مع هذا الدور .. لدرجة أنه بدأ يؤثر على حياتى بشكل ما .. بعد شهرين من بداية المسرحية أكتشفت أننى أبتعدت كثيراً عن السهرات غير البريئة .. لم أعد أدخن مثل السابق .. بدأت أنجذب لقراءة الكتب الدينية و أنا لم أقرأ فى حياتى أى كتاب من أى نوع منذ تخرجى سوى الأدوار التى تعرض على .. لم أقص عليها طبعاً كل هذا الكلام .. كانت تبتسم و هى تسمعنى و لم تحاول مقاطعتى .. تكلمنا بعدها عن طموحاتنا و أحلامنا .. ضحكنا كثيراً .. مر الوقت سريعاً دون أن نشعر به .. سادت بعدها فترة صمت قصيرة .. لمحتها تعيد أحكام الشال مرة أخرى فوق كتفها .. برودة الجو بدأت تشتد .. أدركت أنها تستعد للمغادرة .. لن أضيع الفرصة .. سأصاب بالجنون بالتأكيد إذا أفلتت منى .. دار عقلى بسرعة .. أستأذنت منها لدقيقة .. عدت و معى ألبوم صور أعتز به كثيراً .. يحتوى كل صورى على المسرح .. كان واضحاً أنها تحب التمثيل بالفعل .. عندما بدأت أقلب فى الصور تطلعت إليها بحماس طفولى شديد .. بدأت تضحك و تعلق على كل صورة .. تشير على كل ممثل مشهور تميزه .. بسرعة جلست بجوارها .. وضعت يدى حول كتفها بحركة بدت عفوية و أنا أشير بها على

كل صورة و أسرد قصتها .. قصصت عليها كثير من الحوادث و النـوادر التـى تحدث على المسرح .. سألتنى إن كانت تصلح كممثلة .. أخبرتها بثقـة أنهـا ستكون ممثلة عظيمة .. أنتهزت فرصة زيادة الألفة بيننا فقمت أحضر بعض علب البيرة مـن المطـبخ .. ناولتهـا واحـدة .. نظـرت لهـا بدهـشة و شـك .. ضحكت وقلت مازحاً أن كل ممثلة عظيمة تشرب مثلها .. كما أنها لم تتناول الشاى الذى أعددته و لـست أحـب بالتأكيـد أن يـرى ضـيوفى أنـى بخيـل .. قطعت عليها فرصة التراجع و فتحت لها أحد العبوات .. أنسكب جزء منها على ملابسها .. تطلعت إلى العلبة بفضول حذر ثم شربت منهـا بـتردد و أنـا أواصل تشجيعها بهدوء .. و بسرعة صـعد الـدم إلى وجنتيهـا .. غاصـت فـى الكرسى أكثر و هى تتطلع للصور و تطلب منى أن أحكـى قـصة كـل صـورة .. لففت ذراعى كله حولها .. بدأ لسانها يثقل قليلاً بعد تناولها للبيرة التـى لم أخبرها طبعاً أنها مركزة .. تأملت شعرها الناعم .. رفعـت الـشال مـن علـى كتفها دون أن تعترض .. بدأت أمرر يدى على شعرها .. أقتربت منها حتـى ألتصقت بها بينما أغمضت هى عينيهـا فـى أستـسلام .. أحسـست بأنتفاضـة خفيفة تسرى فى جسدها و أنا أحتضنها .. طبعت أول قبلة على خدها بينما تتسارع أنفاسها .. ثم قبلات حارة على رقبتها و يدها .. لم تقاوم لذة الشهوة التـى أدرك بخبرتـى أنهـا حرمـت منهـا طـويلاً .. تهـاوت بـين يـدى بـلا

مقاومة ..غرقنا فى النشوة و أنا أقبلها بعنف .. أمسكت بيدها و قدتها نحو غرفة النوم و هى تمضى معى بلا مقاومة

و هنا توقف صاحبى .. أشعل سيجارة و أخذ ينفثها بتوتر .. تركته حتى أنهاها دون أن أقاطعه .. رمى السيجارة و أطفأها بقوة بقدمه .. سألته بلهفة : ماذا حدث بعدها ؟

قال بضيق : لم يحدث شئ .. هذا هو الغريب .. ما حدث بعدها أمر غريب حقاً لم أكن أتصوره .. أخيراً المراة التى سعيت لأسابيع وراءها بين ذراعى .. تتهاوى فى حضنى .. مستسلمة تماماً .. وسط كل هذا داهمنى شعورغريب لم أعرف مصدره .. شعور بعدم أرتياح .. قلق .. أحساس يتسلل إلى نفسى ببطء شديد و لكن بثبات .. شعرت بأحتقار لما أقوم به .. لن تصدقنى و لكن هذا بالضبط ما حدث .. كنت فى بداية أحساسى بالنشوة عندما وقعت عينى على كتاب من تلك الكتب التى أشتريتها عن الشيخ الذى أتقمص دوره .. أنتابنى أحساس مزعج بالخجل .. دفعت بالكتاب بعيداً أسفل السرير .. لكن تفكيرى ظل معه .. يتمرد على .. حاولت أنساه .. أتناساه .. أتجاهله .. حاولت أن أعود للحظة المتعة و لكن أفكارى عادت إليه .. ثلاث أشهر كنت أمثل شخصيته .. أمتص أفكاره .. أقدمها .. أعيشها .. أعبر عنها .. إلى أن أصبح جزء منى لا يتخلى عنى حتى فى أوقات

راحتى .. كنت من ساعات قليلة فقط أقف على خشبة المسرح أتكلم عن الحق و الفضيلة و الشجاعة .. و ها أنا ذا الآن فى أحضان أمرأة ! .. شتان الفارق و المعنى .. و أشتعل صراع داخل نفسى .. صراع خاص بين شخصية ضعيفة مستسلمة تجرى وراء شهوتها .. و أخرى قوية صلبة على أستعداد لتقف وحيدة أمام العالم فى مقابل كلمة حق .. و بدأ صراع آخر بين الحرام و الحلال يشب بداخلى .. حاولت أخماد هذا الصراع و عندما نجحت أكتشفت أنى أخمدت شهوتى أيضاَ .. أفقت .. أنتبهت .. و عندما فعلت لم أكن وقتها الممثل المغمور الذى يجرى خلف متعته .. كنت أتمنى حقاً أن أعود لنفسى .. أعود لأكون هذا الأحمق العابث مرة أخرى و لكنى فشلت .. بداخلى ظهرت شخصية شيخ قوى حازم مستعد لمحاربة العالم كله بثبات من أجل مبادئه .. شيخ لا يضعف أو ينهزم أمام شهواته .. نظرت للمرأة بجانبى و لم أعد ألحظ أنها جميلة .. بعدت عنها .. لاحظت هى أنى تغيرت .. توقفت عن ملامستها .. غابت حرارة جسمى .. سألتنى عن سبب تغيرى .. ما لا أنساه أبداً هو أنى سحبتها بقسوة من يدها لكى تنهض .. خرجنا من غرفة النوم .. أشرت إلى الباب و أنا أطردها .. وقفت لثوانى مصدومة .. ألتقطت ملابسها بسرعة عندما رأت أنى فى منتهى الجد .. بان عليها الغضب .. أتجهت نحو الباب مسرعة بعدما طلبت منها أن لا تأتى هنا مرة أخرى .. فتحت الباب

على مصراعيه و قبل أن تخرج ألقت نظرة على علب البيرة الملقية بأهمال فـى كل مكان .. نظرت لى قائلـة بأحتقـار : تمثـل علـى دور المحـترم .. و أنـت مجرد وغد سكير .. لأول مرة أدع رجـل غريـب يلمـسنى .. و لكنـه خطئـى بالتأكيد و لن يتكرر .. خرجت و أغلقت الباب وراءها بعنـف .. لم أنم تلـك الليلة و ظللت ساهراً طوال الليل أفكر .. غمرنى شعور بالراحة لم أعهده مـن قبل .. كنت متأكد أنى قمت بالصواب لأول مرة فى حياتى

توقف قليلاً ليشعل سيجارة أخرى قبل أن يكمل:

تعمدت بعدها لاحقاً أن أعود للبيت متأخراً .. بعد يومين سمعت أن أولاد زوجها الاول كسبوا قـضيتهم ضـدها .. أسـتعانوا ببلطجيـة لطردهـا و رمـى أغراضها خارج البيت .. عرفت أنها لم تجد أحـداً يقـف بجانبهـا أو حتـى يساعدها خوفاً من أولاد زوجهـا .. سـألت عليهـا لكنهـا أختفـت .. أختفـت تماماً .. أنشغلت بعملى .. بعدها بفترة قصيرة كتب ناقـد مهـم عـن دورى و أشاد به .. قال أننى من أفضل المـثلين الـذين رآهـم تقمـصاً للشخـصية التـى أمثلها .. ربما أحساس التقمص ذلك هو سبب شهرتى و سر نجاحى بعد ذلك فى كل أعمالى .. تحصلت بعدها على دور أكبر .. و نجحت فيـه .. و بـدأت أعرف طريق الشهرة .. غادرت البيت و أنتقلت لمكان آخر ..أنشغلت بالعمـل و عالم الشهرة الذى بدأت أطرق أبوابه .. سنوات إلى أن أصبحت نجماً يـشار

إليه بالبنان .. لكنى لم أنساها يوماً أو تمحى ذكرى تلك الليلة من ذاكرتى الهشة .. لسنوات طويلة ظللت أفتش عنها بلا فائدة .. بحثث عنها كثيراً .. أكثر مما تتخيل .. مستعد الآن لأن أدفع نصف عمرى و كل نقودى كى آراها مرة أخرى .. أشعر بها أمامى .. أرى أبتسامتها و ألمس يدها البضة مجدداً .. عندما تعاودنى ذكرى تلك الليلة .. أحياناً ينتابنى أحساس شديد بالندم .. أضعت فرصة صعب أن تتكرر مع أمرأة لا تقابل مثلها فى حياتك إلا مرة واحدة .. لكن صدقنى وقتها كنت فى حالة غريبة .. حالة سلام مع نفسى و مع كل شئ .. و شعرت أن ما قمت به الصواب

سكت قليلاً فأنتهزت الفرصة لسؤاله:

هل لو عاد بك الزمن لتلك الليلة مرة أخرى .. هل كنت ستنتهز الفرصة ؟

-لا أعتقد أن ذلك كان سيغير من الأمر شيئاً .. فى تلك الفترة كنت فى حالة غريبة كما قلت لك .. حالة صفاء تام .. تصالح غريب مع ذاتى .. تغيرت فى تلك الفترة كثيراً للافضل .. و كنت أنساناً جديداً لفترة من الزمن..

ثم سكت قليلاً قبل أن يردف : و لكن للأسف تلك الفترة لم تستمر لمدة طويلة..

سالته بتعجب : لماذا ؟

ضحك بتلقائية و هو يجيبني : لأن المسرحية أنتهت و الدور الذى حصلت عليه بعدها مباشرة كان دور مجرم كبير .. بلطجى و قواد !..

السيارة

كان أول من يشترى سيارة فى قريتنا

قبلها أعتدنا أن نسير على الأقدام أو نستخدم الدواب فى التنقل .. عربة واحدة فقط كانت تمر على القرية بأنتظام كل صباح .. سيارة نقل متهالكة كانت فى الأصل سيارة عسكرية لنقل الجنود أشتراها صاحبها الأسطى عبود من مخلفات الجيش .. غطى الكابينة الخارجية لتتحول إلى صندوق كبير يتسع لستة أشخاص و لكنه يحشر بها عادة عشرة ركاب .. تمر السيارة على القرية عدة مرات طوال النهار لنقل الركاب من قريتنا إلى مركز المدينة حيث الخدمات التى لم تتوفر لدينا ، و خلت قريتنا منها .. يستغرق الطريق نصف ساعة تجلس فيها محنى الظهر تسمع صوت تكسر عظامك عند أى مطب .. تتشبث بمقعدك جيداً حتى لا يطير جسدك فى فراغ العربة عند أى منعطف حاد .. معظم الركاب عادة يستهدفون الذهاب إلى المستشفى الكبير فى المدينة حيث لا يتوافر مستشفى قريب فى قريتنا النائية .. أو للتوجه إلى أسواق الملابس و الخردوات المنتشرة بكثرة هناك

أمى تقول أنى شخص حقود .. تعرفنى جيداً .. أعترف بهـذا .. و لكنـى عالجت نفسى بنفسى من فترة .. و ظننت أنى تخلصت من تلك الـصفة حتـى جاء محمود بسيارته

محمود أبن عمى .. كلانا ورث بيتـه عـن أبيـه .. بيـت كـل منـا ملاصـق للآخر .. تربينا معاً منـذ الـصغر .. ذهبنـا لـنفس المدرسـة .. و لكنـه أكمـل تعليمه و تفرغت أنا لرعاية الأرض .. أرضـه التـى ورثهـا مـن أبيـه لم تكـن كبيرة و لهذا فضل الوظيفة بعد أن ترك زراعة الأرض لأخيه الأصغر .. بينما ورثت عن أبى أرضاً ضخمة أظل طوال النهار أشـرف عليهـا و أعمـل فيهـا .. نستيقظ كلانا فى الوقت نفسه فى الصباح .. أذهب إلى الحقل بينما ينتظر هـو سيارة الأسطى عبود للذهاب إلى عمله فى المدينة حيـث يعمـل كمحاسـب فـى شركة كبرى هناك .. هكـذا ربـط القـدر بـين حيـاة كـل منـا .. حتـى عنـدما تزوجنا .. أخترنا أختين من نفس العائلة .. و تزوجنا فى سنة واحدة ..

ربما لم أكن لأشعر بالغيرة لو لم يسكن بجوارى .. أتذكر جيداً يوم جـاء بسيارته .. حدث نادر فى قريتنا المتواضعة .. أخترقت السيارة أزقة قريتنـا الضيقة المتعرجة بينما دفع الفضول البعض للوقوف فى النوافذ و علـى أسـطح البيوت للفرجة عليها .. حرص أطفال القرية علـى الـركض ورائهـا و تـسلق هيكلها المعدنى اللامع بينما يواصل محمود دفعهم عنها برفق .. عمدة القرية

نفسه جاء ليشهد السيارة التى أصبحت حديث الساعة .. أشتراها محمود من أحد عملائه فى الشركة الذى أضطرته الظروف للسفر فجأه .. أصبحت مثار أهتمام الناس و أحاديثهم .. عرفت لاحقاً أنه باع جزءاً من أرضه لأخيه حتى يوفر ثمنها .. أنقلبت حياته بعدها .. و معها حياتى

قبل مجئ محمود بسيارته أعتدت أن أكون محط أنظار أهل القرية .. المثل الذى يتطلع إليه الجميع بحسد .. رغم صغر سنى ، لكن أرضى هى الأكبر .. أكبر حتى من أرض العمدة .. محصولى هو الأفضل دائماً لأنى أزرع و أشرف على الأرض بنفسى .. و بيتى هو أوسع بيوت القرية .. كان هذا هو المجال الذى لم ينافسنى فيه أحد .. و لا حتى محمود المتعلم .. يحسدنى الجميع .. صحيح أنى لا أحب الحسد ، و لكنى أحب أن أكون موضع أهتمام الناس و أشعر بالسعادة لذلك .. حتى تغير كل شئ يوم جاء محمود بسيارته .. بفضلها أصبح سيد القرية غير المعلن .. بمجرد أن يخرج كل صباح للتوجه إلى عمله حتى ينتهز البعض الفرصة للذهاب معه إلى المدينة لقضاء مصالحهم .. محمود طيب يخجل من رفض طلب أحد .. عكسى تماماً فأنا لا أعرف الخجل .. يقوم بأصطحاب مرضاهم أحياناً إلى المستشفى فى المدينة .. يحمل أغراضهم الثقيلة لنقلها من مكان لآخر .. و عند أقامة أى عرس يتطوع بزفاف العروسين بسيارته بعد أن يقوم بتزيينها بشكل بارع .. بل و نقل

الأثـاث أحيانـاً إلى بيـت العروسـة .. لا يوجـد فـى القريـة بيـت لم يحتـاج لمحمود .. أفضاله على الجميع .. أصبح لديه فى وقـت قـصير مكانـة كـبيرة عند الناس تضاءلت معهـا مكـانتى .. ينهـضون مـن مجالـسهم عنـد أقترابـه منها .. يحيونه بحرارة و لا يتكلمون إلا إذا بدأ الكلام .. حتـى العمـدة بـدأ يصادقه فهو يستغله أحياناً للذهاب إلى المركز فى الحالات الطارئة

لا أخفى أنى شعرت ببعض الغيرة فى البدايـة .. و لكنـى تجاهلـت هـذا الشعور ولم أهتم بالامر كثيراً .. و لكـن بـضعة حـوادث لاحقـة قـضت علـى الهدوء النسبى بداخلى .. بدأت بزوجتى ذات صباح و أنـا أراهـا تتطلـع مـن النافذة بأهتمام .. تشاهد أختهـا تخـرج بـصحبة محمـود و أولادهـم بعـد أن حملوا الكثير من الأغراض و كدسوها فى السيارة .. علمنا أنهم فـى طـريقهم لأحد أقاربنا فى مدينة ساحلية قريبة للأستمتاع باليوم هناك هرباً من الحـر الخانق الذى يجثم على القرية .. لمحت نظـرات الحـسد بـشكل واضح علـى وجه زوجتى الجميلة .. تذكرت آخر مرة ذهبنا فيهـا إلى هنـاك .. أحتجنـا للأنتقال إلى مركز المدينة أولاً و الأنتظار هناك طويلاً لأستئجار سيارة أخـرى للـذهاب إلى المدينـة الـساحلية ثـم أسـتئجار سـيارة أخـرى لقريبـى و منهـا للشاطئ .. ضاعت ساعات فى التنقل و ووصلنا هنـاك مـرهقين تمامـاً بعـد أن تحطمت أضلاعنا من حمل الأغـراض .. أعتـدنا بعـدها يوميـاً رؤيـة محمـود

يصطحب أولاده لمدرسة القرية الوحيدة بينما تخوض أبنتنا الوحيـدة الوحـل مع خادمتها للوصول إلى الكتاب .. و فـى الأعيـاد يـصطحب محمـود أسـرته للتنزه فى المدينة بينما يصعب علينا الأمر بسبب صعوبة المواصلات فـى مثـل تلك الأوقات .. و لكن الحادثة التى قصمت ظهـر الـبعير حقـاً كانـت عنـدما قررت الأختان زيارة خالهما المريض فى المدينة .. ركبنـا مـع الأسـطى عبـود بعد أن أتفقت معه على دفع أجرة السيارة كاملـة حتـى لا يزعجنـا راكـب .. حملنا بعض الهدايا و أصنافاً كـثيرة مـن الطعـام أخترناهـا بعنايـة .. تـأخر الحاج عبود علينا .. عندما أنطلقنا أخيراً كانـت الـسيارة تتمايـل بـشدة علـى الطريق و كأنها فى حلقة ذكر .. مما زاد من الامر سوءاً تعطلها فـى منتـصف الطريق و لم تفلح محاولات الأسطى عبود لأصلاحها .. لساعتان وقفنا نترقب أى سيارة مارة و الشمس تلهب أجسادنا .. عندما وجدنا أخيراً سيارة تتـسع لأغراضنا كانت سيارة نصف نقل و أضطررنا للركـوب فـى الخلـف و الهـواء الساخن يلفح وجوهنا .. وصلنا إلى المدينة قرب أذان الظهر و نحن نلهث مـن التعب .. الطامة الكبرى عندما أكتشفنا أن محتويات الهدايا التـى تعبنـا فـى حملها تبعثرت و أختلطت محتوياتها .. بينما كان محمود و زوجتـه هنـاك من الصباح ينعمون بالراحة .. عند المغادرة لم تستطع زوجتى الحركة بسبب حملها .. لم تجداً بداً من أن تستقل سيارة محمود مـع أختهـا فـى العـودة ..

بينما تظاهرت أن لدى بعض الأشغال فى المدينة حتى لا أركب سيارته .. و عدت للقرية متأخراً و منهك تماماً

ظلت زوجتى طوال تلك الليلة تحكى عن سيارة محمود الواسعة .. تصف كيف كانت تجلس فى الخلف كملكة على المقعد المريح .. و شنطة السيارة التى كانت تسع للكثير من الأغراض .. وصفت مدى سهولة الرحلة و أستمتاعها بالنظر من نافذة العربة .. ليومين ظلت تلمح .. و عندما لم تجد أذناً صاغية .. بدأت تحتد و تشكو .. طلبت بشكل مباشر أن نشترى سيارة أيضاً .. فنحن لسنا " أقل من أى أحد " كما قالت .. و لكنى لم أستطع موافقتها .. لم يحن موعد حصاد المحصول بعد .. و نقودى التى كنت أجنيها أعتدت أن أشترى بها أرضاً جديدة .. لم يعد معى مال .. و حتى لو معى .. كنت أجهل تماماً قيادة السيارات بل و أخاف من الأمر .. حاولت أن أوضح لها كثيراً و لكنها لم تقتنع .. و حرصاً على صحتها تجنبت الخوض فى هذا الموضوع حتى لا أدخل معها فى أى جدال يرهقنى و يؤلمها

رقيقة هى .. و لكنها عنيدة .. و الغيرة عندما تتملك المرأة تتحول إلى كائن آخر يصعب أيقافه .. تعلم ضعفى نحوها .. ليس فقط لأنى أحبها .. و لكن بسبب حملها المقلق .. تذكرت يوم زواجنا .. لا أخجل أن أقول أن محمود هو السبب .. عندما خطب بدأ الناس يتكلمون عن حسن أختياره و

جمال خطيبته .. علمت بعدها أن لخطيبة محمود أخت أصغر و أجمـل .. لم أتردد و تقدمت لخطبتها بعدها بيـومين فقـط .. نعـم قمـت بـذلك .. لم أكـن رأيتها من قبل .. و لكنى بمجرد أن رأيتها حتى تحولـت إلى أنـسان آخـر .. حياتى كلها كانت بين الأرض و مخازن الحبـوب التـى أمتلكهـا .. قلبـى لا يتسع إلا للمال و النفوذ .. لم أتخيل يوماً أن هناك مكان فى قلبى يتسع للحب و العشق .. و لكنى عشقتها .. و هى أيضاً بادلتنى نفس الشعور .. إلى الآن لا أتصور كيف كنت أعيش قبلـها .. و لا أتخيـل حيـاتى يومـاً بعيـداً عنهـا .. أخاف عليها كثيراً و أحاول أرضاءها بشتى الطرق .. و هى أيضاً تـسهر علـى راحتى .. تقوم بأى شئ لأرضائى .. تسبقنى كل صباح لتـودعنى بـشوق عنـد باب الدار فأكتسب قوة تكفينى لمشاق اليوم .. تـساعدنى فـى تغـيير ملابـسى عند العودة و تهتم بالدار جيداً ليبدو دائماً فى أحـسن صـورة و تعتنـى بـأمى المريضة دون طلب منى .. أنجبنا بنتاً بعـد عـام مـن زواجنـا .. فرحـت بهـا كثيراً .. و لكن الحمل أثر علي جسدها الـضعيف .. حملـت بعـدها مـرتين و أجهضت .. و لأربع سنوات كاملة لم تحمل .. تحملت ضـغط أمـى و عـائلتى لأتزوج مرة أخرى لأنجاب ولـداً يحمـل أسمـى .. فـى ليلـة جـاءتنى باكيـة تتوسل إلى أن أتزوج بعد أن تأخر حملها .. غضبت و ثرت عليهـا .. لا أريـد أن يأتى الولد على حسابها .. لن تستطيع أمرأة أن تحل مكانها عنـدى حتـى

لو كانت ستأتى لى بألف طفل .. زرنا العديد من الأطباء بلا فائدة .. حتى حملت أخيراً بعد سنوات المعاناة .. تعليمات الطبيب جاءت صارمة .. يجب توفير كل وسائل الراحة لها و للجنين غير المستقر .. أى مجهود عنيف سيؤثر على سلامتها قبل الطفل .. جلبت لها خادمة و كنت أعاتبها بشدة إذا قامت بأى مجهود فى البيت .. و لكنها ما زالت تصر أن تستيقظ كل صباح لتودعنى .. فى الفترة الأخيرة عندما ثقل حملها و وصلت إلى الشهر السابع كانت تستند على الحوائط حتى توصلنى إلى باب الدار .. لا أغادر حتى أملى عينى من وجهها ، و أيقظ الخادمة لرعايتها

لا أخفى أن كلام زوجتى حرك شيئاً بداخلى كنت أظنه أختفى من فترة .. شعور غامض يلازمنى منذ الصغر لا أدرى كنهه .. و لكنه يتعلق برغبتى دائماً أن أظل الأفضل .. أمى تقول أن أسمه حقداً .. لم أكن أصدقها .. بدأ ينتابنى هذا الشعور للمرة الأولى فى أحدى سنوات دراستى المبكرة .. عندما أتى أحد زملائنا بقلم من الحبر السائل ذهبى اللون .. أبهرنا القلم و الأضواء تنعكس عليه .. تحرك الشعور بداخلى لأول مرة .. كنت ضعيفاً وقتها و لم أستطع مواجهته .. أنتظرت فرصة خروج الطلاب فى الفسحة و تسللت للفصل .. أخذت القلم من حقيبة زميلى بعد أن راقبته و هو يضعه بها .. لم أسرق القلم .. لم أكن أريده .. أكتفيت فقط بأن أكسره إلى نصفين ..

ثم رميته خارج سور المدرسة .. شعرت بالأرتياح .. تعودت على تلك الأمـور بعدها .. عندما يأتى أحـدهم بملابـس جديـدة مـثلاً .. أتعمـد سـكب الحـبر عليه .. أو أطلب منه مشاركتنا لعب كرة القدم و أجذبـه مـن ملابـسه بـشكل يبدو عفوياً أثناء اللعب فأمزقها بشدة .. تكررت حوادث كثيرة مشابهه .. و عندما كبرت توارى هذا الشعور اللعين قليلاً و ظننت أنى تخلصت منـه قبـل أن يعود ثانية

في تلك الليلة تشاجرت مع زوجتى .. رجعـت للحـديث عـن الـسيارة و لأول مرة تصفنى بالجبن .. ثـرت عليهـا و عنفتهـا بحـدة .. تركـت البيـت غاضباً رغم برودة الجو الشديدة فى الخارج .. كنت على أى حال فى طريقـى للمخزن لحراسته .. أعتدت أن أقوم بهذا عدة ليـال بعـد جمـع المحـصول .. تناولت بندقية والدى القديم و خرجت من المنزل .. لأول مرة لا تودعنى عند الخروج .. لم تعتاد القيام بهذا مهما كانت غاضبة منى .. مشيت فى الشارع المظلم ساخطاً على كل شئ .. تفاجئـت بـسيارة محمـود تـسد مـدخل الـشارع أمامى .. عادة يصف سيارته أمام منزله .. و لكنى حرصت فى الفترة الأخيرة أن أرش كثيراً من الماء أمام المنزل حتى تحولت الأرض إلى بركة ماء صغيرة .. لم أكن أريد رؤيتها أمام بيتى .. تذكرت لرؤيتها ما حدث للتو بينـى و بـين زوجتى .. و كل خلافاتنا فى الآونة الأخـيرة .. غلـت الـدماء فـى عروقـى ..

قطعة الحديد الملعونة تلك هى السبب .. غمرنى ذلك الشعور الغامض بقوة .. كبته طويلاً حتى تفحل .. أقتربت منها و فى لحظة غضب ركلت هيكل السيارة بقدمى بقوة .. أفزعنى الصوت العالى الصادر منها .. جفلت .. تراجعت .. خشيت أن يسمع محمود أو أحد من الجيران الصوت .. تسمرت فى مكانى للحظات و لكنى لم ألحظ أى حركة .. النوافذ مغلقة و السكون التام يعم المكان .. الليلة شديدة البرودة و الكل يحتمى فى داره تحت دفء الأغطية خاصة أن الوقت متأخر .. تجرأت أكثر .. تملكتنى فكرة مجنونة شقت طريقها إلى رأسى بسهولة .. نظرت للسيارة بحقد .. للحظة تخيلت هيكلها المعدنى محطماً مساوياً للأرض .. أبتسمت .. خرجت من أحلامى .. لن أستطيع تحقيق ذلك بطبيعة الحال .. و لكن لا بأس ببعض الضرر إذن .. تلفت حولى بحذر .. توجهت نحو الأطار الأيمن .. ألتقطت سلكاً صغيراً من داخل جيبى كنت أسلك به البندقية القديمة .. دفعته بغيظ مكبوت نحو الاطار .. وقفت أرقبه بنشوة و الهواء يفرغ منه .. توجهت بعدها لأطار آخر .. أفرغته مثل سابقه فى وقت أقل .. تطلعت حولى .. السكون ما زال يعم المكان .. وقفت أتطلع إلى السيارة بعد أن شعرت ببعض الهدوء .. سيظن أن مسماراً أو حجر مدبب هو السبب .. هذه ليست المرة الأولى التى يصاب فيها أطاره بسبب تلك الأشياء المنتشرة بشدة على طرق القرية البدائية .. أعلم

أنها تكلفه كثيراً من حيث الجهد و المال تغيير تلك الأطارات الحمقاء .. أنهيت عملى .. سرت نحو المخزن الذى يقع فى نهاية القرية بهدوء بعد أن تلاشى غضبى .. مضيت هادئ البال و قد شعرت ببعض الراحة أدندن بموال قديم أحبه أقطع به الطريق الطويل الذى يستغرق عادة نصف ساعة

لم أعرف أن عند منتصف تلك الليلة ستشعر زوجتى بالتعب .. نادت على الخادمة التى هرعت إليها على الفور .. كانت تصرخ من الألم .. هرعت الخادمة للبيت المجاور لأيقاظ أخت زوجتى .. تطرق على الباب بعنف حتى يستجيب أهل الدار .. تكتشف أختها أن زوجتى على وشك الولادة .. يهرع محمود للقابلة التى تسكن فى بيت قريب منا .. يتفاجئ بعدم وجودها نظراً لذهابها إلى قرية مجاورة فى ولادة أخرى مفاجئة .. زوجتى ترقد مستسلمة .. ينساب العرق منها .. تتلوى من الأنقباضات العنيفة التى تجتاحها .. تتنفس بصعوبة .. يحتقن وجهها .. الطبيب أخبرنا أن حالتها دقيقة و ستحتاج لجراحة عندما يحين موعد ولادتها و لكنه لم يكن ليستشف القدر ليعرف أنها ستنجب بعد سبع .. أخت زوجتى تبكى و هى ترى علامات الحياة تختفى من على وجه أختها الوحيدة .. يقترح محمود الذهاب إلى المستشفى فى المدينة .. تلف أختها عباءة واسعة على جسد زوجتى و يشدوا عليها بعض الأغطية .. تسندها الخادمة و أختها بصعوبة نحو

الباب .. يستيقظ بعض الجـيران علـى الـصوت .. تقـف النـساء علـى أبـواب البيوت عاجزة أمام حالتها الصعبة .. تخرج إلى الشارع و هى تسير بأعياء .. تجلس على الكرسى الخلفى و هى تمسك بـوهن ببطنهـا المنـتفخ .. لا تـشعر أنها بدأت تنزف ببطء .. خيط من الدماء ينساب منها بشكل طفيف .. يـدير محمود مفتاح السيارة .. تتحرك السيارة ببطء و بدون أتزان على غير العـادة لبضعة أمتار .. يهبط محمود ليكتشف أن أحد أطـارات الـسيارة فـارغ .. فـى طريقه لأستبداله يكتشف أن أطار آخر فارغ أيضاً .. يقف عاجزاً و هو يخـبط بيده على السيارة بيأس .. تبكى أخـت زوجتـى عنـدما يطلعهـا همـساً علـى الوضع .. ينظر فى شفقة إلى المسكينة التـى تلقـى مـصيرها داخـل الـسيارة .. يحاول التفكير فى حل .. يطرق إلى الأرض عجزاً .. و..

صراخ زوجتى يعلو فجأة ليشق سكون الليل .. و نزيف الـدماء المتواصـل بدأ يزداد

أنتحار فاشل

أحكم لف الحبل جيداً حول مروحة السقف الضخمة التى تتوسط غرفته الصغيرة .. تأكد أن الحبل يمكن أن يتحمل وزنه .. عقد بأحكام حلقة فى نهاية الحبل ثم مرر يده عبرها .. أنتهى فأفلت الحبل و تابعه و هو يتأرجح فى فضاء الغرفة .. هبط من كرسيه .. أبتعد بضع خطوات وألقى نظره أخيرة .. كل شئ أصبح جاهزاً الآن .. لم يعد ينقصه سوى لحظة تنفيذ مخططه الجنونى

تطلع للحبل المتدلى من السقف .. أغمض عينيه فى حنق .. ثوان و ينتهى الأمر .. أستهلك كل الخيارات و لم يعد أمامه طريق آخر يتسع لخطواته سوى طريق الموت .. حياته أصبحت عبء لم يعد بقادر على تحمله .. حاول كثيراً و لكن الفشل لازمه بأصرار فى كل خطوة أتخذها فراراً لواقع أفضل .. عاندته الظروف و القدر و رسمت له طريقاً ينتهى دوماً مهما تعب من حيث بدأ .. أختل توازن عربته تحت وطأة ضربات الحياة ، و ضاقت عليه الدنيا فلم يجد يداً تمتد إليه بالحل سوى يد الموت..

و رغم أنه عزم أمره .. ما زال يشعر بقلق يسيطر عليه .. تهاوى على طرف سريره يعيد أستجماع شجاعة بدأت تفلت منه .. لم يكن قراره عشوائياً أو وليد لحظة أندفاع أو عاطفة حمقاء .. فكر كثيراً حتى أرتاح لقرار لم يتخيل يوماً أن يمنحه حق المرور بخاطره .. لم يمتلك فى أى لحظة من لحظات حياته جرأة كافية ليتخذ قراراً بهذا الثقل ، و لكن الفشل أكسبه شجاعة لم يعهدها فى نفسه .. فشله المتواصل فى الحياة لم يكن له حل سوى أنسحاب ناجح منها .. خاض حرباً طويلة النفس أرهقته مع واقع مؤلم خرج منها كالعادة مثخن الجراح .. فقد قدرته على أستجماع قواه مرة أخرى لمعركة قادمة على أمل نصر لن يأتى .. و لم يعد لديه الصبر ليتعايش مكسوراً مع جراح تزيدها الأيام و ألسنة الناس ألتهاباً

مثل كل البشر .. كان لديه طموحات و أحلام لم تكن بالكبيرة لتثير القدر ضده .. طموحات صغيرة بمقدار حظه فى العالم .. و ليعترف .. بمقدار مواهبه أيضاً فيه

قالوا عنه أنه مهمل .. خامل .. كسول .. دوت تلك الكلمات كثيراً فى أذنه دون أن ينكرها .. طلقات أصابت سمعته المهتزة و أتهامات وجهها له الجميع لم يتبرأ منها .. يعلم أنه يمتلك كل تلك الصفات و أكثر .. صفات نمت بداخله من صغره لم يدرك قسوتها إلا متأخراً .. أمه الوحيدة التى

ساندته فأقنعت نفسها و أقنعته أنه سوء الحظ .. و لكن .. لعل الحظ برئ من دمه .. يدرك أنه كسول بالفعل .. و أن كلام الناس رغم قسوته و ما بـه دومـاً من مبالغة صحيح .. لم يفلح يوماً فى عمل و تعثر طويلاً فى دراسته .. حاول أن يثور و يغير من نفسه .. يتمرد فيتخلص من ذاته القديمة .. يرسم خيـوط جديدة غير خيوط الفشل التى سارت عليها حياته و لكـن مـن قـال أن الطبـع يغلب التطبع مر بالتأكيد بمحنته .. لم يعلـم تحديـداً كـم مـرة حـاول و لأى مدى توغل فى طريق مغاير .. كم مرة حملته قدماه بعيداً و و فرح بنجاحـات مؤقتة فى حربه مع الحياة لأن الأمـور دومـاً كانـت تـأتى بـنفس النهايـة .. صحيح أنه لم يسمح لليأس أن يتسرب كمـرض خبيـث إليـه .. واجـه نفـسه بقسوة مرات عديدة .. حاول أن يتخلص من تلك الـصفات التـى ألتـصقت بـه حتى عرف بها و لكنه كان يعود بعد كل محاولة إلى نقطة الصفر مهمـا طـال الأمر.. تعب من محاولاته الشاقة مع عالم يعجز عن التكيف مع متطلباتـه و لا تؤهله قدراته ليدور معه بـنفس سـرعته .. يـأس مـن الـسعى وراء أحـلام يدرك أن الواقع لن يمنحه الفرصة لتحقيقهـا .. مهمـل هـو لا ينكـر الأمـر و لكنه حاول .. و لم يعد يهمه الآن ما يقوله الناس عنه .. على الأقـل لم يكـن يوماً بالجبان و أختـار بأرادتـه الطريـق الأصـعب .. و لديـه شـجاعة كافيـة لأنهاء مسرحية وجوده الفاشـلة بالنهايـة التـى تـشبع غـرور جمهـور طالمـا

تابعها بشغف كبير..

ما زال يشعر بتوتر لا يدرى مصدره .. شئ غامض يسيطر على أنفعالاته ينبض مع قلبه و يسرى فى عروقه فلا يستطيع أيقافه .. شعور غامض يرتجف له جسده .. لعله الخوف .. لحظة الأنتقال الأخيرة – و الأولى – لعالم مجهول لم يفر أحد من أسواره و لم تهتك أسراره بعد .. من أدراه أن العالم الجديد لن يكون ملوثاً كسابقه .. قاسياً عليه بلا قلب كالذى فر منه .. أو لعل الأسوأ ينتظره .. رهان صعب لكنه مجبر حتى النهاية على خوضه .. أحرق كل أوراقه الرابحة و لم يعد لديه أمل فى الفوز فليغامر إذن بباقى أوراقه .. أرض جديدة يلقى نفسه بين أحضانها لن تكون أقسى عليه من الحياة وسط عالم يلفظه .. أبتسم بمرارة و هو يتذكر حياته .. ماضى تحول لشبح مفزع يترصده بأستمرار .. واقع يبادله العداء و مستقبل ينتظر ككمين معد مسبقاً لأستنزافه أكثر .. تجربته المريرة فى الحياة تدفعه للأقدام نحو أى أرض جديدة حتى لو كان الطريق الوحيد إليها يمر عبر بوابة الموت .. قصته من البداية كتبت كمأساة لم يكن لها أن تحظى بترف النهايات السعيدة .. سينهى مأساة وجوده كما يجب أن تنتهى بفاجعة ربما يصفق لها الجمهور أخيراً و تحوز بعض الرضا ، أو على الأقل بعض التقدير و الشفقة لحياة بائسة ..

نهض يذرع الغرفة قليلاً لعله يقضى على التـوتر الـذى يجمـد أطرافـه .. ترى ماذا ستكون ردة الفعل عند أكتشاف جثته .. هل تشيعه الألسن الحمقاء بالرحمة أم تصفه بالجنون .. بسخرية تتناول سيرته أم بشفقة تغلفها بعض العاطفة .. اللعنة علي كلام الناس .. على الأقل لن يتهمه أحد مجدداً بالفشل بعد أن أختار الطريق الأصعب بأرادته و نجـح فـى عبـور جـسر تنهـار عنـد الأقتراب منـه شـجاعة أشـد الرجـال تماسـكاً .. لـن يـشغل بالـه الآن بـرأى الناس .. و لولا أمه لنفذ الأمر من فترة طويلة .. هى وحدها مـن تـشغل بالـه فى تلك اللحظة .. مسكينة هى .. لم تسبح مع تيار كلام الناس .. ظلت علـى أيمانها به للحظة الأخيرة .. أيمان لا يستند على أى سبب لكنه قـوى .. لـو فكرت قليلاً لأدركـت أنهـا خاطئـة ، و لكنهـا لم تفكـر بـه إلا بقلبهـا .. لا يرغب أن يتسبب لها بأى ألم و لكـن .. ألـيس مـن المـؤلم لكلاهمـا أسـتمراره هكذا .. ربما تدرك لاحقاً أن قراره كان صـائباً ليريحهـا مـن عـبء تحملتـه طويلاً .. كان عليها أن تيأس منه كما فعل الناس لعله يرتاح قليلاً مـن عـذاب الذنب الـذى يتملكـه الآن نحوهـا .. كـان عليهـا أن تتوقـف عـن زرع الأمـل بداخلها و بداخله و تـدرك مبكـراً أن أرضـه بـوار لا تنبـت سـوى المـرارة و الفشل ..

هز رأسه فى عنـف .. لـن يـسمح للـتردد أن يـسيطر عليـه فـى لحظاتـه

الأخيرة .. أستجمع شجاعته أو ما توافر منها و أقترب من الكرسى .. صعد فوقه .. بيد هربت منها الدماء وضع الحلقة حول رقبته .. مرارة قاسية يشعر بها فى حلقه .. لما تهاجمه الآن .. ماذا لو منحه العالم بعض الحظ .. و صبر عليه الناس قليلاً .. لم يكن يوماً طماعاً أو مبالغاً فى أحلامه .. فقط بعض الحظ و قليل من النجاح يكفيه ليعيد تلوين حياته بألوان سعادة لم تعرفها .. رفع عينيه للسماء بحيرة .. هل يفعلها .. أحرق كل قوارب النجاة و لم يعد لديه الطاقة للسباحة مجدداً فى بحور تملأها دوامات الأحباط .. غصة تهاجم حلقه و رعشة تمسك بأطرافه .. هل هناك طريق آخر لم يسلكه من قبل .. حل لم يفكر فيه .. عصر ذهنه فى الأمر كثيراً من قبل ، و لم يزده التفكير سوى أيماناً بقراره .. تنفس سريعاً لعله يطرد كل خواطره .. ضيق بيده الحلقة حول عنقه .. شعر بخشونة الحبل على جلد رقبته .. أغمض عينيه بألم مرغماً ذاكرته العنيدة على أستدعاء صور من يحبهم فى لحظاته الأخيرة .. أبتسم رغماً عنه عندما مرت بذهنه صور خطيبته .. لما كتب عليه القدر أن يعشقها لهذا الحد طالما كان سيفارقها .. و أمه التى يذوب عشقاً فى أبتسامتها .. و لمسات يدها الحانية التى تمسح كل جراحه .. سيفتقد كل ذلك بالتأكيد .. اللعنة على تلك الذاكرة .. كان عليها أن تعانده و ترفض طلبه ..

أهتزت أقدامه على الكرسى فأرتجف قلبه .. تدافعت الأفكار بقوة داخل

عقله .. فكر بسرعة و تساءل .. هل هناك فرصة أخرى يمكـن أن ينفـذ منهـا لحياة أفضل .. صحيح أنه خسر خطيبته و لكن يمكن أن يعوضـها .. صـحيح أنه فشل فى كل عمل قام به و لكن النجاح الحقيقى يأتى دوماً متأخراً .. لما لا يمنح نفسه هدنة ثانية .. فرصة للعودة يكفر بها عن هفواته و يتصالح فيهـا مع نفسه و العالم لعله يجد مخرجاً لأخطائه..

أخرج رأسه من الحلقـة .. نـبض قلبـه بعنـف و هـو يحـدق فـى الحبـل المتأرجح أمام بصره تماماً .. تحسس عنقـه بـلا وعـى .. هـبط مـن كرسـيه .. خذلته أقدامه و لم تعد بقادرة على حمله فتهـاوى علـى سـريره يرتجـف .. دفن رأسه بين كفيه يفكر .. هل يتراجع فى قـراره الآن .. لم يعـد يـدرى .. يوشك أن يسلمه التفكير للجنـون .. صـحيح الحيـاة جميلـة و لكنهـا ليـست له .. الأنتحار هروب لا ينكر ذلك .. و لكن البديل أن يبقى ليلعن حظـه مـع كل صباح ، و يعود كل مساء ليلعق جراحه .. و هو لم يعد لديه طاقة لتحمل ضريبة خسائر أخرى..

لا .. لن يتردد تلك المـرة .. تـنفس بعمـق .. فـتح عينيـه .. أقـترب مـن الكرسى بسرعة و خطا فوقه .. أمسك بالحبل لثـوان ثـم أحكـم وضـعه حـول رقبتـه .. لن يمنح نفسه أملاً زائفاً .. و لـن يقبـل أن يعـود ليمثـل دور الرضـا بحياة مثيرة للـشفقة .. مـا زال قلبـه ينـبض بعنـف .. عليـه أن يهـدأ قـدر

الأمكان قبل لحظة التنفيذ .. يريد أن يغادر العالم بسلام قليلاً ما أحس به .. يغادر بطمأنينة بعد أن عاش طوال عمره يرتجف خوفاً من كل شئ حوله ..

أرتجفت قدماه فأهتز الكرسى .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. تسارعت نبضات قلبه و زفر أنفاسه بقوة .. نظر للأرض أسفل منه .. خطوة أخيرة باقية .. يترك جسده للفراغ و مصيره للقدر .. خطوة و يصبح كل ماضيه بلا قيمة وراء ظهره .. رفع رأسه إلى السماء .. يقولون أن المقبل على الموت يرى صور حياته قبل رحيله .. أبتسم بسخرية .. آخر ما يرغب أن يراه قبل موته هو صور حياته الفاشلة .. ثوان و ينتهى الأمر على أى حال ..

حبس أنفاسه .. نقل قدمه نحو حافة الكرسى ببطء .. تفاجئ بدمعة تنحدر من عيناه ، هو الذى لم يعتاد أن يبكى مهما كان الألم الذى يتعرض له .. و لكنه يقف على حافة أكبر من قدرته على أدعاء الشجاعة .. ترى هل أخطأ .. تسرع كالعادة .. أندفع وراء خلاص سريع لهموم مؤقتة .. و أمه .. هل كان أنانياً عندما عزم أمره دون أن يفكر فى مصيرها بعده .. هى التى أتخذته عكازاً تستند عليه من عثرات الأيام فتهاوى بها مبكراً .. و خطيبته كيف تخلى عنها بسهولة .. الحب الذى أنتظره طوال عمره و دعا طويلاً أن يأتيه فهرب منسحباً منه بعد أول معركة واجهها .. و الناس .. لما سمح لبضع أفواه حمقاء أن تحكم على حياته و تقود حياته بجنون لتصل بها إلى

هوة النهاية .. نهاية لم تراود خياله يوماً وأو تتمثل لـه فـى أسـوأ كوابيـسه رغم وفرتها .. لا .. لن يسمح لنفسه بأنسحاب سريع مخجل أمام وهم يسيطر عليه .. ثقته بنفسه على تجاوز الفشل ما زالت قوية رغم كل ما مر بـه .. لـن ينهى حياته بفشل جديد يتندر به الناس .. يؤمن أن ما زال لديه الأفـضل .. يشعر فى عروقه بدم الحماس ما زال يتدفق فيها .. و طاقته لم تنفـذ بعـد .. سيعود ليثبت لنفسه قبل أن يبرهن للآخرين أنـه قـادر علـى هزيمـة أعدائـه بنفسه .. لن يسمح للكسل و الفشل أن يكونـا عنـوان حياتـه و ملخـصها بعـد الآن .. لن تلتصق بـه تلك الصفات مرة أخرى .. سيعود للحياة أكثر تصميماً .. و خطيبته سيحارب العالم من أجلها .. و أمه .. ما أجمل حضنها .. سيبرهن أن ثقتها فيه كانت فى محلها تماماً .. و لـن يـؤذى القلـب الـذى طالمـا أتـسع لأحزانه ..

هم بالنزول من على كرسيه .. مد يده نحو الحلقـة التـى ضـاقت بأحكـام حول رقبته .. فى تلك اللحظة أهتز جـسده .. أرتجـت الأرض بغتـة تحـت أقدامه .. سمع صوت شئ يتحطم .. قبل أن ينظر لأسفل تمايل الكرسى تحت ثقل جسده .. تهشم فجأة سريعاً محدثاً دوى خافتاً .. هوى جسده متأرجحـاً فى الفراغ .. ضرب بأقدامه فى الهواء بلا وعى محاولاً العثور على شئ صـلب يقف عليه بلا فائدة .. ضغط الحبل على عنقـه أكثـر .. أنـسحب الهـواء مـن

صدره فى دفعات سريعة متلاحقة .. أحتقنت عيناه بعد أن بدأت الدماء تندفع إليها بقوة .. تلون وجهه سريعاً بلون الدم .. بدأ يضرب بقدمه فى الهواء بقوة أكبر فلا يزيد سوى ضغط الحبل السميك على حنجرته .. حاول أن يمسك بالحبل بيده و لكن قواه بدأت تخور .. جرب أن يصرخ فلم يخرج صوته .. فى لحظات بدأت صور حياته تتدافع أمامه .. أدرك وقتها فقط أنها النهاية و لكنه ما زال يقاوم و يرفضها .. شعر بحواسه تكتسب ثقل مفاجئ ... الأصوات تختفى تدريجياً من حوله .. تبهت الصور لتتلاشى ببطء .. الضوء ينسحب من أمام عينيه .. يفقد قدرته على المقاومة .. يختنق .. تنتاب جسده رعشة لا يستطيع أيقافها .. ترتجف أطرافه بعنف .. و .. ببطء يتسلل إلى عالم آخر لا يعرفه..

فى تلك اللحظة .. من كل الصور التى مرت فى ذهنه وقتها توقفت ذاكرته أمام واحدة منها .. لا يعرف السبب ..آخر ما يتذكره وجه أمه داخل غرفته أثناء حديث قصير معه .. ربما من يومان أو ثلاثة .. لا يستطيع تحديد الزمن بدقة .. لكنه يتذكرها جيداً و هى تهمس فى أذنه قبل أن تغادر " لا تنسى أن تصلح الكرسى الصغير لأن قدمه تبدو مكسورة " .. و لكنه أهمل الأمر كعادته .. نظر إلى الكرسى المحطم تحت قدمه .. أبتسم بسخرية و الدم يندفع إلى رأسه .. أغمض عينيه فى أستسلام تام تلك المرة .. و ترك جسده للفراغ بعد أن توقف عن المقاومة

قضاء و قدر

هل يمكن أن يحاسب الأنسان على القضاء و القدر .. حدثت هذه القصة لى منذ أكثر من ثلاثة و عشرين عاماً .. كنت قد تخرجت وقتها من كلية الطب .. شاب بأحلام كبيرة و طموح بلا حدود و لكن بأمكانيات محدودة لا تتلائم مع طموحاته .. جاء تعيينى فى قرية نائية لم أسمع بها مطلقاً ، و لم أجد من يستطيع أن يزودنى بأى معلومات عنها .. أستجمعت شجاعتى و توجهت إليها ذات صباح لأستلام أول عمل لى .. وصلتها ظهراً بعد رحلة شاقة تراودنى أحلام كبيرة فى النجاح .. و بمجرد أن أستكشفت القرية حتى شعرت بالغربة .. قرية فقيرة معظم بيوتها من طين تحيط بها من الأطراف العديد من البرك و المستنقعات .. طرقها غير ممهدة تختلط فيها رائحة الحقول بروث البهائم و قلة فقط من بيوتها تزورها الكهرباء .. لا يوجد فيها سوى مقهى واحد و علمت أن وسائل المواصلات تنعدم بها ليلاً .. للوهلة الأولى قارنت بينها و بين المدينة التى أعتدت العيش فيها .. شعرت بالفراغ و الوحدة .. و على الرغم من صدمة الانطباع الأول قررت أن أمضى قدماً .. فلم

يعد يهمنى الآن سوى أن أنجح فى وظيفتى الأولى ، و ربما شعرت لاحقاً بالراحة و السكون فى جو الريف الهادئ

أستلمت عملى فى الوحدة الصحية الخاصة بالقرية ، إن جاز أن نطلق عليها هذا الأسم .. كانت عبارة عن بيت متهالك من طابق واحد يشمل غرفتين أحدهما للكشف .. عرفت لاحقاً أنه كان ملحق بدوار العمدة قرر أن يخصصه كمركز صحى لخدمة أهل البلد أبتهاجاً بولادة أبن له .. يقوم على خدمة المركز ممرضة عجوز و فراش من أهل البلد .. كان أول ما فعلته أن قررت المبيت بغرفة الكشف حتى أجد سكناً ، فالقرية بالطبع تخلو من وجود فنادق من أى نوع .. قمت بجرد للأدوات و الأدوية الملحقة بالوحدة و التى عمل الطبيب السابق سجلاً بها .. سألت عن الأمراض الشائعة بين سكان القرية و تعداد أهلها .. ثم قررت البدء فى العمل من الصباح بعد أن أستريح من عناء السفر

فى الصباح بدأت العمل بعد أن حظيت بنوم مضطرب فى الليل .. لم أعتاد النوم بصحبة كل هذا الكم الهائل من الحشرات .. كما أن النوم على طاولة الكشف غير مريح تماماً .. أكتشفت أن معظم أمراض أهل القرية متشابهة .. كثير منها ناتج عن سوء التغذية أو العمل تحت أشعة الشمس الحارقة .. بعضهم عند الكشف كان يحكى عن أعراض كثيرة كلها متعارضة

لا تجتمع إلا لشخص مات فعلاً أو فى طريقه لذلك .. أعتدت على رؤية هذا النوع من المرضى .. يمكن أن تعطيه بعض أقراص الفيتامينات و تقنعه أنها أحدث دواء ليقفز بعدها من الصحة فى الصباح التالى .. لم تكن هناك حالات خطيرة سوى لفلاح عجوز وقع و أنكسرت قدمه .. لم أجد بداً من تحويله إلى قسم العظام فى الوحدة الصحية بمركز المدينة بعد أن قمت بعمل الأسعافات اللازمة .. أنتهى اليوم الأول على ما يرام .. و فى المساء تجولت فى القرية فلم أجد بها ما يلفت النظر .. قرية عادية تشعر أنك لو تمتلك آلة للزمن و عدت مائة سنة للوراء لألفيتها كما هى دون تغير .. و رغم أنى لم أكمل يومى الأول هنا و لكنى بدأت أفتقد سهراتى بالمدينة .. و خروجى مع أصدقائى كل ليلة .. بالأضافة إلى مجهودى لأتأقلم مع الحياة هنا مستقبلاً ، على أن أبذل مجهوداً آخر أكثر جدية لأنسى حياتى السابقة

كما توقعت مر أسبوع سريعاً بلا جديد .. الشئ الوحيد الذى طرأ عليه التغيير فى تلك القرية المنعزلة هو أنا .. أزدت هزالاً و شحوباً و لم أزل أعانى من الأرق ليلاً .. فى صباح اليوم الثامن و بينما أكشف على أحد المرضى سمعت ضجة عالية فى الخارج .. أقتحم غرفة الكشف فجأة بعدها رجل ضخم ذو شارب كث عرفت لاحقاً أنه عمدة القرية .. يحمل طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره ثمانى أعوام يبدو هزيلاً جداً .. ثرت على الممرضة التى

أقتحمت غرفة الكشف وراءه حيث أنـى أفهمتهـا مـن قبـل بمنـع دخـول أى شخص أثناء قيامى بالكشف على مـريض مهمـا كانـت الأسـباب .. و لكنهـا كانت تقف عاجزة تنقل بصرها حائرة بينى و بين الرجل الضخم .. تحولـت إليه بعصبيه و صببت جام غضبى عليه .. جرى بيننـا جـدال عنيـف عرفـت منه أن أبنه سقط مغشياً عليه فجأة فلـم يجـد بـداً مـن أقتحـام الوحـدة بهـذا الشكل .. رغم ضخامته و مقامه كان منظره مثيراً للشفقة حقـاً و هـو يحتـضن أبنه الصغير .. تمالكت نفسى قليلاً .. أنهيت الكشف على المـريض و كتبـت له بعض الأدوية سريعاً ثم توجهت إلى أبن العمدة .. حملته و وضـعته برفـق على طاولة الكشف بينما يلاحقنى العمدة بنظراته و هـو يرتجـف قلـيلاً مـن الأنفعال .. لم يستغرق الأمر سوى لحظات حتى أدرك أن الولد أصيب بضربة شمس قوية .. حراراته مرتفعة و معدل تنفسه بطئ .. منحته حقنة خافـضة للحرارة و كتبت له بعض الأدوية ثم أمـرت العمـدة أن يعـود بأبنـه لبيتـه و وعدته أن أوافيه هناك بعد العيادة لمتابعة الحالة .. لم يجـد العمـدة بـداً مـن تنفيذ تعليماتى .. أنهيت العمل فى الوحدة بعد ساعتين .. جلست مرهقـاً .. دخلت المرضة بعدها لتعتذر عما حدث .. علمت منها أنها لا تستطيع منعه حتى لو حاولت فهو كبير القرية و سيدها ، و الوحدة التى نعمل فيها كانت من أملاكه يوماً .. كما أنه لم ينجب سوى أبنين أحدهما فـى التجنيـد .. و لم

يتبق له سوى هذا الولد .. قبلت أعتذارها و أمرتها بالأنصراف .. رغم أرهاقى إلا أنى أعتدت أن أفى بوعودى .. توجهت لمنزل العمدة الذى لم يكن من الصعب العثور عليه فهو ملاصق للوحدة .. دوار كبير حقاً ينبئ بمكانة صاحبه .. أستقبلونى بلهفة .. قادونى إلى الطفل المريض بسرعة .. أنخفضت حرارته قليلاً و لكنها ما زالت تثير القلق .. طلبت بعمل كمادات له و ظللت طوال الليل بجواره .. أتى لى العمدة بالطعام بنفسه و تبادل معى الحديث .. قررت المبيت بجوار المريض لمتابعة حالته و قام العمدة بواجب ضيافتى على أكمل وجه ، و فى الصباح كانت الحرارة قد أنحسرت و بدأ الولد يتنفس بشكل طبيعى و إن كان ما زال بحاجة لمواصلة العلاج و الراحة لعدة أيام .. خرجت بعدها للوحدة لأواصل العمل و أنا أقاوم النوم بصعوبة .. و فى المساء زارنى العمدة .. كان شخصاً آخر .. ممتلئ قوة و مهابة و يرتدى جلباباً فاخراً من الصوف .. كانت الممرضة على حق عندما لم تعترض طريقه .. حمل هدايا كثيرة و شكرنى بشدة على المجهود الذى بذلته .. قال أنه لولاى لفقد الولد و أثنى كثيراً على براعتى .. أعلم أن كلامه به مبالغة و لكن المديح أطربنى ، لأول مرة أجد شخص يثنى على عملى .. تبادلنا الحديث طويلاً .. و عندما علم أنى أنام فى الوحدة شهق من المفاجأة .. كيف لطبيب مثلى أن ينام هكذا .. أمر بتجهيز بيت خاص بالضيوف ليصلح مكاناً لسكنى و أقسم

أن أبيت فيه .. عندما ذهبت إلى هناك أحسست أنـى انتقلـت للجنـة مقارنـة بالمكان الذى كنت أسكنه مؤقتاً .. بيت من طابق واحـد واسع بـه غرفـة نـوم كبيرة مجهزة بناموسية و حمام و مطبخ .. لم أكن لأحلم بأفضل من هـذا فـى تلك الظروف .. و أمعاناً فى مكافأتى خصص لى خادمة ترعانى

لأول مرة أنام بعمق منذ مجيئى إلى هنا .. تحسنت أحوالى كـثيراً بـسبب المسكن الجديد .. و الأهم بسبب الخادمة التـى وفـرت لى العديـد مـن وسـائل الراحة لـشخص مهمـل بطبعـه مثلـى .. أمـرأة متوسطة العمـر تتفـانى فـى عملها .. أعود لمنزلى فأجد طعامى جاهزاً .. تغـسل ملابـسى و تنظـف المنـزل قبل عودتى .. أزداد وزنى بشكل ملحـوظ خـلال أسـابيع قليلـة بعـد أن أصـر العمـدة علـى تزويـد منـزلى دائمـاً بـشتى أشـكال اللحـوم و الخـضروات و الطيورالطازجة .. بدأت أتـأقلم علـى الحيـاة و العمـل هنـا خاصـة أن العمـدة صادقنى و أعتدت السهر فى دواره كل ليلة مع أعيان القريـة .. وأكتـشفت أن العمدة مثقف حيث درس فـترة فـى المدينـة فـدارت بيننـا مناقـشات فكريـة كثيرة وثقت الصداقة بيننا .. و بدأت الحياة العابسة فى القريـة تظهـر علـى وجهها أبتسامة ضئيلة لى

كنت أنهى عملى عادة فى الثالثة و أعود للمنزل فأجـد كـل شئ مرتبـاً و الخادمة قد أنـصرفت .. أحيانـاً كنـت ألقاهـا عنـد عـودتى تـستعد للمغـادرة

فأهبها بعض النقود ، أو أطلب منها حمل الطعام الدسم الذى أعدته معها حيث كنت أتناول الطعام مع العمدة فى كثير من الأحيان .. و هكذا مضت أسابيع .. حتى أنهيت عملى فى أحد الأيام مبكراً .. لم تكن الوحدة مزدحمة بالمرضى كالعادة فى هذا اليوم و عرفت بالمصادفة أن هذا هو موسم حصاد المحصول حيث ينشغل الجميع .. حتى المرضى منهم أو المتمارضين وكبار السن يذهبون للعمل .. لم أجد ما أفعله فى الوحدة فتوجهت إلى منزلى القريب طلباً للراحة و طلبت من المرضة أبلاغى إذا كانت هناك حالات طارئة .. دخلت المنزل فسمعت حركة أوانى فى المطبخ .. لا بد أن الخادمة تطهو الطعام .. تعمدت أن أسعل بصوت عالى حتى أنبهها لوجودى .. لفت أنتباهى رائحة المنزل الجميلة .. جلست أدخن قليلاً أنتظاراً لقدوم الطعام و أنا أقرأ أحد المجلات القليلة التى أحصل عليها بصعوبة من القادمين من المدينة .. لم أكد أنهى سيجارتى حتى سمعت وقع أقدام تقترب من الغرفة .. وضعت صحن الطعام أمامى و أنا أقرأ .. أزحت المجلة جانباً و نهضت لأساعد الخادمة فى وضع الصحن الكبير .. رفعت بصرى .. تفاجئت بأمرأة أخرى

تسمرت فى مكانى للحظات .. نعم .. أمرأة أخرى غير الخادمة .. صبية شابة لم تتجاوز التاسعة عشر .. بمجرد أن وضعت الطعام حتى لفت شالها

على وجهها من الخجل و أنصرفت بسرعة .. ثم عادت بأبريق من الماء تحمله بيد و باليد الأخرى ما زالت تخفى وجهها بشالها .. وقفت بأنتظار أوامرى .. بالطبع سألتها عن الخادمة .. أجابتنى بصوت منخفض من الحياء أنها أبنتها و علمت منها أن أمها مريضة و لم تستطع القدوم فحلت مكانها .. كنت أعلم أن للخادمة بنتاً و طفلين صغيرين و أن زوجها توفى من فترة .. و لكنى لم أتخيل أن أبنتها على مشارف الشباب و جميلة بهذا الشكل .. أخبرتها أنى لست بحاجة لشئ .. أنصرفت بعدها مغادرة المنزل و أغلقت الباب وراءها .. أقبلت على الطعام و أنا أفكر فيها .. فى الواقع لم أتذوق طعاماً أشهى من الذى صنعته من قبل .. حتى الماء كان له طعم مختلف بعد أن أضافت إليه بعض ماء الورد فنزل برداً و سلاماً على معدتى المتخمة .. و على الرغم من أنى لم أرى إلا نصف وجهها .. إلا أن الجمال لا يمكن أخفاءه .. فى المساء سهرت مع العمدة .. سألته بشكل غير مباشر أثناء حديثنا عن الخادمة .. عرفت منه أنها أرملة معدمة مات زوجها من فترة بسيطة فخرجت للعمل .. علمت أنها أنجبت أبنتها و هى صغيرة ثم قضت سنوات طويلة بدون أنجاب حتى رزقت بولديها و أنها كانت تخدم فى بيته قبل أن يلحقها بخدمتى اكراماً لى ، و أنه يشهد بأمانتها و كفاءتها

بالطبع لم أحكى له أن بنتها جاءت لخدمتى اليوم بدلاً من أمها

المريضة .. الغريب حقاً أنها لم تفكر بزيارتى رغم مرضها .. يبـدو أن بعـض سكان هذه القرية لا زالوا لا يثقون بالطبيب و يفضلون عليه الوصفات القديمة المعتادة من بعض العطارين المعروفين فى القرية

فى اليوم التالى عدت من العمل مبكراً .. وجـدتها هنـاك .. ترتـدى ثوبـاً جديداً فاتح اللون زادها جمالاً .. ظهرت حمرة الخجل علـى وجههـا عنـدما رأتنى .. لم أستطع تبادل أى حديث معها يومها لأنهـا أنـصرفت بمجـرد أن وضعت الطعام .. و لكنى فى اليوم التالى صممت على العودة أبكر من المعتاد .. تفاجئت بعودتى .. لم تكن أعدت الطعام بعد و لهـذا أضـطررت للبقـاء حتـى الأنتهاء منه .. بدأت أتجاذب معها أطراف الحديث و هى ترد على أسـئلتى بأجابات موجزة مقتضبة لا تشفى غليلى .. قبـل الأنـصراف أهـديتها بعـض الفاكهة التى أشتريتها و بعض الأدوية لأمها بعدما سمعت منها بأيجاز عـن حالتها

مر أسبوع سريعاً و زادت الألفة بيننا تدريجياً .. أصبحت لا أفكر ليلاً أو نهاراً إلا فيها .. لم أكـن شـاباً سـاذجاً قليـل الخـبرة بعـالم النـساء .. قمـت بالعديد من المغامرات أيام دراستى قبل مجيئى إلى هنا .. و هى فتاة لا تجيـد التحدث أو أبراز مفاتنها كما تجيد فتيات المدينة .. فما سر أنجـذابى إليهـا أذن .. ربما بسبب الفراغ الذى أشعر به هنا .. أو لأنها مختلفة .. لم أعـرف

فتيات يشبهنها من قبل .. فاكهة جميلة بكر لم تسقط بعد من أغصانها ، و لم تمسها يد من قبل .. و رغم تبسطها معى فى الكلام قليلاً إلا أنى لا زلت ألاحظ تحفظها عندما تكون معى .. تحافظ على مسافة بيننا عندما أكلمها .. تبقى على باب البيت مفتوحاً عندما أعود .. و على النوافذ أيضاً و لأن البيت من طابق واحد ملئ بالنوافذ فيسهل على أى مار رؤية كل ما فيه .. لم أرها يوماً تلبس ملابس قصيرة أو منزلية بسيطة رغم أنها تنظف البيت يومياً .. يبدو أنها تقوم بهذا بمجرد مجيئها فى الصباح عندما أكون فى ذروة عملى فى الوحدة

أستعنت بكل الأساليب التى أعرفها لأستمالتها و تنوعت طرقى فى ذلك .. أصبح كل فكرى مقصوراً عليها .. تيقظت بداخلى حاسة صياد قديم كنت قد نسيتها .. و بدأت أحكم شباكى أنتظاراً لفريسة ثمينة .. أستطعت فى أحد الأيام أن أمسك يدها بحركة بدت عفوية و أبقيتها فى يدى لأطول فترة ممكنة .. أستملت قلبها بالعديد من النوادر عن المدينة و التى كانت تطرب لسماعها .. أثرت شفقتها بحديثى عن الوحدة التى أعانى منها و حاجتى لأمرأة لتشاركنى حياتى المضطربة .. و عندما شعرت أنها أقتربت من الشباك .. أنتهزت الفرصة و أغتنمت منها قبلة أسرعت بعدها بالفرار من البيت خجلاً

كانت خطتى تسير على ما يرام إذن .. أيام و تقع بين يدى .. أخيراً بعد عشرة أيام من مطاردتها .. فى اليوم التالى عدت مبكراً كالعادة أحمل بعض الهدايا أشتريتها من المدينة بعد أن أوصيت أحد زملائى هناك بأرسالها مع واحد من التجار هنا .. أشتريت الكثير من الفاكهة و الحلوى .. كنت أدندن من أغنية أحبها و أنا أدلف للدار .. سمعت صوت جلبة فى المطبخ .. لا بد أنها هناك .. أخفيت الهدايا و ناديت عليها .. أستغرق الأمر لحظات قبل أن أسمع صوت أقدامها .. عندما خرجت من المطبخ .. أصابتنى صدمة

ليست هى .. على باب المطبخ ظهرت أمها .. و للحظة عجزت عن الكلام .. هل أشتكت لأمها أنى عاكستها .. هل أحست أمها بشئ فجاءت لتنتقم .. و لكن أمها قطعت على حبل أفكارى السوداء لوناً و خيالاً عندما جاءنى صوتها الضعيف لتخبرنى أنها تعافت من مرضها ، و رأت العودة من جديد للعمل .. عاودتنى الطمأنينة عندما لم أتنين فى وجهها أى ملامح للشر أو الغضب .. كتمت سؤالاً كاد يقفز من طرف لسانى لأسألها عن أبنتها .. هنأتها على سلامتها رغم أنى رأيت علامات الأجهاد بادية بوضوح على وجهها .. يبدو أنها عانت من مرض قاسى فعلاً .. و لم تبرئ منه تماماً .. تناولت طعامى بلا شهية .. قبل أنصرافها أشرت إلى الفاكهة و الحلوى و أمرتها ان تحملها لبيتها .. لم تنسى أن تشكرنى على الأدوية التى أرسلتها

و التى كانت سبباً فى سرعة شفائها .. لأول مـرة طـوال حيـاتى ألـوم نفـسى لأنى كنت السبب فى شفاء أحد .. اللعنة .. ليتنـى لم أرسـل الـدواء .. كنـت على بعد خطوة فقط من نيل مرادى قبل أن ينهار كل شئ فجأة

لا أعرف لما أحسست بالأحباط يومها .. كان الأمر كله عبثاً .. من البداية مجرد لهو .. رغبتـى الرجوليـة فـى أثبـات ذاتـى بأيقـاع شـابة بريئـة فـى حبالى .. مغامرة أخرى أسترجعها لاحقاً عندما أكبر و أبتسم دون أهتمام بمـا يحدث للفتاة لاحقاً .. ربما كان هذا ما يحركنى فى البداية .. و لكنى بـدأت أحس بأنجذاب شديد تجاه هـذه الفتـاة لا أعلـم مـصدره .. أنجـذاب حقيقـى صادر عن عاطفة لم أعرفها من قبل

فى الأيام القليلة التى كانت فيها معى كنـت أعـيش فـى جنـة هـى التـى صنعتها .. فى المرات المعدودة التى حاورتها ، و رغم نشأتها الفقيرة ، إلا أن حديثها كان يدل على ذهن متوقد و ذكاء فطرى .. مجرد وجودها حـولى كـان يريحنى و يضفى جو من الدفء على المنزل لا أشعر معه بالوقـت .. مجنـون أنا لأفكر بخادمة بهذا الشكل .. و لكن المشاعر ليست لها منطق فمن يستطيع السيطرة عليها .. كل محاولاتى لنسيان الأمر جاءت بنتيجـة عكـسية تمامـاً فبدأت أفكرفيها أكثر .. أشتاق إليهـا .. فـى فـترة غيابهـا تـواردت خـواطر كثيرة فى رأسى و تصادمت .. لم أعد قادراً علـى التركيـز أو الـتفكير في شـئ

آخر .. لكن الشئ المؤكد أنى كنت أرغب فى رؤية هذه الفتاة مرة أخـرى بـأى ثمن

مرت أربعـة أيـام و كـدت أجـن .. كـان لا بـد لى أن أراهـا بـأى شـكل .. لاحظت الخادمة توترى فأرجعتـه إلى ضـغط العمـل .. فقـدت شـهيتى تمامـاً فكنت أطلب منها أن تأخذ الطعام الذى تعده إلى بيتها خاصة أنهـا مـا زالـت فى مرحلة النقاهة و تحتاج لتغذية جيدة حتى تـستعيد قواهـا .. فـى اليـوم الخامس أنتابتها كحة شديدة .. عرضت أن أكشف عليها و لكنهـا تراجعـت بخوف و رفضت بحـزم .. هـذه المـرأة تخـاف إذن مـن الكـشف عنـد طبيـب رجل .. ذلك هو السر فى عدم مجيئها إلى عند مرضها الأول .. فى اليوم التالى زادت حدة الكحة لديها .. كنت أعلم بحكم خبرتى أنه مجـرد ألتهـاب فـى الحلق أهمل علاجه و لن يسبب خطورة كبيرة على صحتها علـى أى حـال .. فى ظهيرة اليوم التالى فى الوحدة كنت أعبث بمحتويات بعض الأدويـة بعـد أن فضلت فى الفترة الأخيرة أن أقضى فترة راحتـى هنـاك بعيـداً عـن البيـت الذى يثير لدى ذكريات لا أستطيع كبتهـا .. وقعـت يـدى علـى بعـض المـواد فخطرت لى فكرة لا أعلم كيف واتتنى ..غزت عقلى بسهولة .. لا أدرى كيف أنهارت أمامها كل ملكات العقل و المنطق لدى و كيـف وجـدت قبـولاً سـريعاً عندى .. فكرة خبيثة حاولت أن أطردها من تفكيرى فلم أفلح إلا فـى جعلـها

تستولى علـى مزيـد مـن خلايـا تفكـيرى المـشغول بالفتـاة .. أعلـم بـالطبع أن الخادمة مصابة بألتهاب فى الحلـق .. بيـدى مـادة لـو تناولتهـا تزيـد حـدة الحالة لديها .. بالطبع لن تعرض صحتها للخطورة و لكنها سـتجبرها علـى المكوث فى المنزل .. أعراضها مؤكدة .. لن تستطيع الكلام و ستصاب بـصعوبة فى التنفس و ربما ترتفع درجة حرارتها قليلاً .. لن تستطيع النهوض للعمل على أى حال .. ستزول الأعراض بعد عدة أيام بشكل طبيعـى دون أن تـصاب بضرر .. لن أعرض صحتها للخطر بالتأكيد .. و لكن بأمكانى فقط أن أضـعف مقاومة جسمها للمرض قليلاً فلا تستطيع النهـوض للعمـل .. عنـدها فقـط .. سترسل أبنتها بالتأكيد مرة ثانية لخدمتى بدلاً منهـا .. لمعـت عينـاى و أنـا أتدبر كل هذا .. الغريب أنى لم أجد أدنى مشكلة أو صعوبة فى تقبـل الفكـرة نفسها.. و لكن فى كيفية تنفيذها .. كيف أعطيها المادة دون أن أثير شبهتها

لو أعطيتها المادة على شكل دواء ستمرض بعدها و ستوقن بأن الـدواء هـو السبب .. بعد طول تفكير .. وجدت أن أنسب طريقة هـى أن أضـع المـادة فـى الطعام فالمادة بلا رائحة أو طعم قوى مميز .. بعد الظهر بساعة عدت لمنزلى .. تظاهرت أنى متعب قليلاً .. أمرتهـا بغـسل بعـض الملابـس .. ذهبـت لتنفـذ أمرى فتسللت للمطبخ الـصغير .. كنـت أعلـم أن العمـدة أرسـل لى طعامـاً مـن منزله .. دسست المادة فى بعض الأوانى الموجودة .. عندما أنتهـت أخبرتهـا

أنى لست أشعر بأى شهية للطعام .. طلبت منها أن تحمل الطعام لمنزلها و تحرص على تناوله حتى تستعيد صحتها .. نظرت إلى شاكرة .. ناولتها بعض الفاكهة التى أشتريتها أيضاً .. أنصرفت و هى تتمتم لى ببعض الدعاء .. أحسست بقلبى ينبض بقوة و أنا أراها تحمل الطعام فى طريقها لمنزلها .. أوشكت أن أقفز من مكانى و أعترض طريقها لأعترف لها بما قمت به .. منعت نفسى بصعوبة و جلست و العرق الغزير ينساب منى

قضيت طوال الليل قلقاً من عواقب ما فعلته .. لم أستطع النوم .. فى الصباح لم تأت الخادمة .. الخطة تسير على ما يرام إذن .. توجهت لعملى بحماس أكبر من المعتاد .. عدت مبكراً متوقعاً أن أجد الفتاة .. و لكن لم يكن هناك أحد بالمنزل .. لم تأتى هى ، أو ترسل أبنتها .. كنت مرهقاً من التفكير طوال الليل فغفوت قليلاً .. أستيقظت على صوت فراش الوحدة ينادينى من الخارج لحالة طارئة .. أرتديت ملابسى ساخطاً و أنا بين اليقظة و النوم .. فى الوحدة أكتشفت أن الحالة لصبيان .. طفلان أحدهما فى الثالثة و الثانى يكبره بعامين .. أحدهما وجهه أزرق يعانى من صعوبة فى التنفس و يمسك ببطنه بشده بينما الثانى جسده ساكن بشكل مثير للقلق .. أنتبهت فوراً و طار النوم من عينى .. من الواضح أن الحالة خطيرة فعلاً .. بدأت بالكشف على الصبى الأكبر الذى كان يتلوى من الألم .. حرارته مرتفعة بشدة .. بعد

قليل ألتفت إلى الصبى الآخر .. الصبى الأصغر .. لاحظت أن جسده بارداً و من الكشف المبدئى أدركت أن الأمر قد فات لأسعافه .. نقلت كل جهدى للطفل الأكبر فى محاولة يائسة لأنقاذه .. ناولته بعض الحقن .. أمرت الجميع بالخروج ما عدا الممرضة التى كانت تقف بجوارها سيدة متشحة بالسواد لم ألحظ وجودها فى البداية .. كنت مشغولاً عندما أقتربت منى .. لاحظت أنى لا أكشف على الطفل الأصغر .. نظرت إلى جسده البارد .. أصطدمت بها و أنا أجهز بعض الأدوات فألتفت إليها غاضباً .. أمرتها بالخروج صارخاً .. تسمرت فى مكانها .. يبدو أنها كانت فى حالة صدمة فلم تسمعنى .. رغم القناع على وجهها إلا أنى لاحظت أنها تبكى .. أقتربت منها الممرضة و قادتها للخارج فمضت معها بأستسلام بخطوات ثقيلة .. عدت لعملى .. الطفل بحاجة لغسيل معدة بالتأكيد و بعض الفحوصات .. لا أدرى تحديداً سبب الحالة .. و لكن تصورى المبدئى أنها حالة تسمم حادة

خرجت من غرفة الكشف بعد برهة و أمرت الممرضة بتجهيز بعض الأدوات .. تقدمت منى السيدة التى تتشح بالسواد .. لم أجد بداً من مواجهتها رغم أرهاقى .. رفعت الغطاء عن وجهها .. لم أرى وجهها إلا فى هذه اللحظة .. تسمرت فى مكانى .. خادمتى .. هى بعينها .. سألتنى بصوت خانق من العبرات عن حالة أبنيها .. أذن الطفلين ولديها .. كيف

أخبرها .. الطفل الكبير لم يتجاوز الخطر .. و الآخر لم يكتب لـه النجـاة .. تأخروا كثيراً فى أسعافهما و نقلهما إلى الوحدة الصحية .. تطلعت مـن بـاب غرفة الكشف المفتوح إلى الطفل الأصغر المسجى جسده على الطاولة أمامى بـلا حياة .. تاهت منى الكلمات .. أول مرة يموت لدى مريض .. و أى مريض .. هززت رأسى بأسف .. لم اجد بداً من أخبارها بالحقيقة .. أنهارت أرضـاً .. تقدمت منها فتاة تتشح بالسواد مثلها .. أبنتها التـى لم ألحـظ وجودهـا مـن قبل .. أحتضنتها و أنخرطا فى نوبة بكاء صامتة .. صـرخت أحـد الـسيدات الموجودات فى العيـادة فطلبـت منهـا الـصمت حتـى أسـتطيع مواصـلة عـلاج الطفل .. لعدة ساعات أنشغلت فى علاجه و قياس درجة حرارتـه .. فى المساء بدأ يتنفس أخـيراً بـشكل طبيعـى و إن لم يفـق بعـد مـن غيبويـة أنتابتـه .. خرجت مرهقاً من غرفة الكشف

لم أجد بداً من مواصلة القيام بدورى كطبيب و التوجه نحـو الأم لـسؤالها بعض الاسئلة لأعرف الظـروف التــى أدت إلى هـذه الحالــة .. أخبرتنــى الام المكلومة بصعوبة أن ولديها كانا بصحة جيدة .. تناولا طعـام الغـداء ثـم لعبـا قليلاً فى الخارج .. فى المساء بدأت بوادر الحمى تظهر عليهم قبـل أن تـشتد فى الصباح .. لوهلة كان يبدو الأمر طبيعياً داخل ذهنى .. و لكن بعد لحظات بدأت أستعيد كل كلمة قالتها الأم .. كانا طبيعين قبـل تنـاول الغـداء .. هـل

يمكن .. غير معقول .. هل أكلا من طعام الأم .. بدأت الصورة تتضح قلـيلاً .. الطعام الذى أرسلته معها بالأمس .. كان لدى شك فى الأعراض التـى حـدثت للولـدين ..أعـراض مألوفـة لـدى بـلا شـك .. تـسمم بالتأكيـد مـن مـادة غـير معروفة .. حاولـت أن أتمالـك نفـسى .. يكـاد ذهنـى ينفجـر عنـدما أتخيـل الموقف .. الأم آثرت أبنيها على نفسها و ناولتهما الطعام المفترض أنـه لهـا و الذى عادت به من منزلى .. هذا يفـسر كـل شـئ .. تنحيـت جانبـاً سـريعاً و ذهنى يكاد ينفجر .. أنفـردت بنفـسى قلـيلاً فـى غرفـة الكـشف مـع الطفـل المريض ، فيما نقلوا جثة الطفل الآخر لمكان مجهول أستعداداً لدفنـه .. أكـاد أجن .. ماذا فعلت .. المادة التى وضعتها بالتأكيد لم تكن لتشكل خطورة علـى حياة الام .. ستفقد قوتها لبضعة أيام قبل أن تتعـافى تلقائيـاً بعـد فـترة .. و لكن بالنسبة لطفل صغير لم يتجـاوز الثالثـة .. مناعـة الجـسم هنـا أقـل .. و عواقب تناولها مميتة .. خاصة أنهم تأخروا فى العلاج .. كان يجـب أرسـال الطفلين فوراً بمجرد ظهور الأعراض عوضاً عـن الأنتظـار لليـوم التـالى لطلـب مـساعدة متـأخرة .. أدركـت الآن فقـط أنـى الـسبب .. أعـترف بهـذا .. أنـا المجرم .. ما حدث كان خطئاً منى .. بسبب غبائى و تهورى .. أحد الأطفال مات و الآخر يقف على الخط الفاصل بين الحياة و الموت بسبب نـزوة طائـشة من قاتل فى ثياب طبيب مثلى .. هرعت فزعاً فأغلقت بـاب غرفـة الكـشف و

مكثت داخلها .. لا أعلم كـم مـن الوقـت مـر علـى هكـذا .. خفـت أن أخـرج إليهم .. كنت متأكد أن نظرة إلى وجهى .. و بخاصة مـن الأم .. ستفـضحنى بالتأكيد و يدركون أنى الفاعل .. و ربما أنهرت تماماً و سهلت الأمر عليهم و أشرت إلى نفسى لأعلن أنى السبب بصوت عالى

قطع على تفكيرى المرضة و هى تدلف للغرفة .. حاولت أستعادة رباطـة جأشى .. طلبـت منـى كتابـة شـهادة وفـاة للطفـل حيـث يحتاجهـا الرجـال بالخارج لأنهاء الأجراءات .. يا ربى .. هذا ما لم أفكر فيه .. أقتله و أكتـب شهادة وفاته بيدى .. ذلك أكثر مما يمكن لبشر تحملـه .. و مـاذا أكتـب فـى خانة سبب الوفاة .. عبث طبيب .. الطبيب العاشـق هـو الـسبب .. نبهتنـى المرضة بعد أن لاحظت طول صمتى .. أمسكت القلم و يدى ترتعش .. بـذلت جهداً لأتمالك نفسى .. صوت العقـل بـداخلى – أو لعلـه صـوت الـشيطان – ينادينى .. آخر ما أحتاج إليه الآن هو أن أنهار أمامهم .. ما حدث قد حدث و لن ينفع أعلانى للخطأ .. على أنقاذ مستقبلى .. لم يتراجع المـوت مـن قبـل أمام ندم قاتل و لن يفعل فبماذا يفيـد أعترافـى .. كتبـت الـشهادة و سـلمتها للممرضة .. ذكرت فيها أن سبب الوفاة طعام ملوث .. لم أذكر شيئاً عن المـادة المـسببة للوفـاة .. ناولتهـا الـشهادة بيـد ترتجـف .. ظنـت أنفعـالى بـسبب الأجهاد .. قررت بعدها الاعتكاف فى الغرفـة حتـى الـصباح بحجـة البقـاء

بجوار الطفل المريض

لا أعلم كيف مر الوقت على .. أحاول أن أوقف تدفق الصور فى ذهنى فلا أستطيع .. نجحت فى انقاذ الطفل الكبير .. سمعت المديح و عبارات الثناء من الجميع لأنقاذى طفل من براثن الموت و لا أحد يعلم أنى قدمت طفلاً آخر قرباناً له .. حتى الأم المثكولة تمالكت نفسها و جاءت لتشكرنى بنفسها فكدت أذوب أثماً و أنا أقف بين يديها أتلقى مديحها كخناجر تغرس فى قلبى .. لم أطق الحياة فى القرية .. قدمت أستقالتى بعد فترة متحججاً ببعض الظروف العائلية فى المدينة التى تدفعنى للعودة .. هجرت البلدة كلها بعد عدة أسابيع مما حدث .. سعيت لبعثة فى الخارج و سافرت .. ظننت أن البعد عن مكان الجريمة سينسينى ما حدث و لكن الشعور بالذنب لا يعترف بحدود أو قيود المكان فلازمنى .. أصطحبنى فى أى مكان فررت إليه .. رجعت بعد عدة سنوات و أفتتح عيادتى الخاصة .. أنهمكت فى العمل بلا راحة .. أنقذت حياة الكثير من المرضى و ساعدت فى شفاء أعداد لا تحصى .. ظهرت فى التلفاز عدة مرات و ذاع صيتى .. بنيت مستشفى خيرى و تعددت أعمالى الأنسانية .. و لكن كل هذا كان مجرد مخدر لتسكين آلام الضمير المزمنة .. قطعت علاقتى بالماضى إلا من خيط واحد .. تواصلت مع العمدة سراً لسنوات للأطمئنان على حالته فى الظاهر .. و حالة الأسرة التى

دسست الموت بين أفرادها .. أرسلت له مبالغ مالية عندما تحسنت حـالتى و طلبت منه مـنحهم أياهـا دون ذكـر أسمـى و لكـنهم رفـضوها فـالأم لا تقبـل أحساناً من أحد كما قال و لهذا كانت تخرج و أبنتها للعمل .. أنقطعت صلتى به بعد فترة .. أحياناً أنصب محاكمة لنفسى .. أقاضيها بقسوة .. أنا الـشاهد على نفسى و الجلاد و القاضـى .. أصـدر حكمـى عليهـا مـن أول جلـسة .. لا مذنب سواى .. و أحياناً أدافع عن نفسى .. تأخيرهم فـى عـلاج الحالـة كـان سبباً مباشراً فى تدهورها و عدم القدرة على علاجها .. ما زال صراع البراءة و الذنب يشتعل بداخلى .. أكتـب قـصتى علـى الـورق و أتمنـى لـو كـان ينطـق فيحكم على حالتى .. بحكم عملى كطبيب أعلم أن ألم الجروح يزول بعد فترة و لم أدرك أن جروح الضمير لا يزيدها الزمن إلا أيلاماً .. ما زالت صور الطفل المفارق للحياة تحل ضيفاً ثقيلاً على ذاكرتى بلا موعـد و تـأبى أن تفـارقنى .. كمريض بالصرع لا يرجى شفاؤه ، تنتابنى من وقتها كثير من نوبات الـذنب و الندم بشكل مفاجئ فتعصف بكيانى .. ما يقلقنـى أنـى تزوجـت متـأخراً و أنجبت طفلان .. أدخل غرفة نومهما كل مساء بعد عودتى من العمل لأطمـئن عليهما .. لا أتصور أن أفقد أحد منهما .. أتخيل أحياناً أنـى لم أعاقـب علـى فعلتى و ربما يأتينى العقاب فى طفـلاى .. أكـاد أجـن عنـدما تراودنـى تلـك الأفكار .. ليس هناك أسوأ من أن تقضى حياتك فى حالة أنتظار مزمنة لعقاب

عادل قد يأتى فى أى لحظة .. لا أعرف لحالتى علاجاً مؤقتاً سوى الكى بالألم .. أعيش مطارداً بالندم .. و الندم ذئب جشع لا يرحم لا تزيده مرور السنوات إلا خبرة فى أحكام خناقه على فريسته .. لم أنجح طوال تلك السنوات فى التكفير عن أثمى و لكنى نجحت بجدارة فى أن أتعذب به .. أتعذب بذنب أحاول عبثاً التعايش معه منذ ثلاثة و عشرون عاماً بلا أمل

صورة

زرنا صديقنا فتحى فى مكتبه لتهنئته بمنصبه الجديد .. لم يتغير مكتبه القديم رغم الترقية .. رحب بنا بحرارة و قضينا بضع دقائق نتبادل الحديث فى عدة موضوعات مختلفة قبل أن يتناهى إلى سمعى صوت طرقات على الباب .. يبدو أن صاحبى لم ينتبه له لأنه واصل الكلام .. بعدها بثوان عاد الطرق مرة أخرى .. لأول مرة أدرك أن صديقى ثقيل السمع .. ألتفت إليه لألفت نظره أن هناك أحد بالباب ربما يستأذن فى الدخول .. لوح بذراعيه بلا مبالاة و لم يعلق .. و لكن عندما قطع حديثنا للمرة الثالثة صوت تلك الطرقات الخفيفة نهضت و فتحت الباب لأتفاجئ بعدم وجود أحد .. الردهة الطويلة أمام المكتب خالية تماماً .. أخرج صديقى علبة سجائرة و أشعل واحدة بهدوء ثم أسترخى فى مقعده .. سألته بتعجب و أنا أشير إلى الطرقة الخالية:

-أين ذهب الطارق ؟

أجابنى بلا أكتراث : دعك منه .. ربما فتحى الفراش .. تلك طرقته

المميزة

لم يفوت صديقنا الفرصة .. سأله مازحاً : و هل أعتاد أن يطرق الباب ثـم يهرب كالأطفال ؟

-ربمـا أصـابه الملـل فأنـصرف .. أو ربمـا غـضب قلـيلاً لأنـى أتجاهلـه كالعادة .. لا تقلق سيعود لاحقاً .. و لن أفتح له

سألته بتعجب : إذن تتجاهله عمداً .. لماذا .. ؟

قال دون أهتمام : لهذه قصة طويلة

أثارت كلماته فضولى ، قلت مازحاً : يبـدو أن بالموضـوع سـراً مـا تحـاول جاهداً أن تخفيه

ضحك صديقى قائلاً : لا يوجد أسرار .. و لكنى لا أريـد تـضييع وقتكمـا سدى فى قصة لا تستحق

أجبته و أنا أعاود الجلوس على مقعدى : طالما ليس بالموضوع سراً فأحكى إذن .. على الأقل نعرف لما طرق الباب و هرب

سكت قليلاً ، ثم قال بأستسلام بعد برهه : حـسناً .. و لكنـى حـذرتكما أنها حكاية مملة لا تستحق

أطفئ سيجارته ثم قال:

عم فتحى أقدم عامل هنا .. أستلم عمله من أول يوم أنشأنا فيه المجلـة .. الجندى المجهول هنا كما يقولون .. نشيط دائماً لا يركن للراحة و لا يـستقر فى مكان .. لم يكن فراشاً فقط .. بـل أيـضاً عامـل النظافـة و حـارس الأمـن و سكرتير أحياناً .. مجلتنا فى بدايـة عهـدها لم تكـن مـشهورة و ميزانياتهـا محدودة للغاية و لهذا قام بكل تلـك الوظـائف راضـياً .. أعتـاد أن يـأتى فـى الصباح مبكراً قبل أى أحد .. ينظف المكاتب ثم يتوجه إلى المطبخ .. بمجرد أن يضع الماء ليغلى حتـى يتوافـد المحـررين .. يعـد المـشروبات طـوال اليـوم .. يستقبل أحياناً الزوار و يدلهم على المكاتب .. يصلح أى شئ مكسور .. و يرد على التليفونات عندما تكون الـسكرتيرة الوحيـدة لـدينا مـشغولة أو متـأخرة كعادتها .. هو أول من وقعـت عينـاى عليـه عنـدما جئـت إلى هنـا .. مجـرد محرر مبتدئ وقتها .. كنا نحسده على ذاكرتـه القويـة .. لا ينـسى شـيئاً .. يحفظ عادات كل شخص .. فى الثامنة صـباحاً يحـضر لى قهـوتى المعتـادة .. وبعدها بساعتان تماماً يحضر كوب القهوة الثانى دون أن أطلـب منـه بعـد أن عرف عاداتى .. مواعيده دقيقة تـستطيع أن تـضبط سـاعتك عليهـا .. بمـرور الوقت بدأت المجلة تنتشر تدريجياً و يزداد عـدد المحـررين فـأكتفى بعمـل الفراش بعد أن أحضرنا عاملة نظافة تساعده بعد الظهر

أتذكر أول مرة خرجت فيها المجلة للنور .. أعطيته نسخة من أول عـدد

نصدره فظل يحتفظ بها بحرص داخل درج خاص فى المطبخ .. و رغم أنـه لا يقرأ لكنه ظل يتطلع للصور بشغف .. يخرج المجلة فى أوقات فراغه و يقلب فى صفحاتها بحثاً عن الصور و يطالعها بتركيـز و يـسرح مـع أفكـاره .. بـدأ يطلب نسخة من كل عـدد نـصدره ليطـالع الـصور .. لا أعلـم مـا سـر هوايتـه الغريبة تلك و لكنه كان شغوفاً بها بشدة .. بعد ثلاث سنوات من عملى هنـا ترقيت و أصبحت كبير المحررين .. زادت أواصر الـصداقة بينـى و بـين عـم فتحى خاصة أنه كان يسهر معى أحياناً لأنجـاز أعمـالى المتـأخرة .. و عنـدما أصاب أحياناً بالأرهاق من العمل .. يجلس ليـسلينى و يحكـى لى قـصص مـن حياته

ذات صباح أتذكره جيداً .. جاء يطرق على الباب كعادته .. كنت مشغولاً بكتابة مقال فلم أرفع عينى عن الأوراق .. ظـل متريثـاً أمـامى دون أن يـصدر عنه أى صوت حتى أنتهيت .. عندما رفعـت عينـى أبتـسم بـتردد .. ألقيـت نظارتى و فركت عينى و أنا أسأله بهـدوءعن سـبب أنتظـاره بهـذا الـشكل .. سكت قليلاً ثم أجابنى بخجل أنه يريدنى فى طلـب شخـصى .. توقعـت أنـه يرغب فى أقتراض بعض المال رغم أنه لم يفعلها من قبل .. أبتسمت لأشجعه على الكلام .. أطرق إلى الأرض .. تهدج صوته قليلاً و هو يردد :

-أريد منك معروفاً لن أنساه طوال عمرى

سكت قليلاً .. بلع ريقه بصعوبه .. تلعثم و هو يكمل بأبتسامة مرتبكة : أريدك أن تنشر صورتى فى الجريدة

تمالكت نفسى بصعوبة حتى لا أضحك .. لو رأيت تلك النظرة الطفولية على وجهه وقتها لضحكت .. ملامحه فى منتهى البراءة و الجد فى آن واحد .. سألته برفق:

-لماذا تريد أن تنشر صورتك ؟

أجاب بعدة أجابات كلها تدل على السذاجة .. أخبرنى أنه يحب الصور و يحلم أن يرى و لو صورة صغيرة له فى المجلة حتى يريها لأصدقائه ، و يحتفظ بها بعد أن يتباهى بها أمامهم .. لم أشأ أن أصدمه بصعوبة الأمر .. الطريقة الوحيدة لأنشر صورة له هو بعد عمر طويل فى صفحة الوفيات ..رأيته ينظر نحوى و هو يتطلع بلهفة لردى .. تململت فى مقعدى .. فكرت فعلاً بجدية فى أمره .. رغم سهولة طلبه و لكن صعب أن أنشر له صورة فى أى قسم من أقسام الجريدة .. الصفحات الأولى مخصصة بالطبع للأحداث السياسية البعيد هو عنها تماماً و لا يرغب بالأقتراب منها .. صفحات المجتمع لا تهتم سوى بأخبار الفنانين و المشاهير .. أستبعدت صفحة الرياضة بالطبع فالرياضة الوحيدة التى يجيدها هى ركوب دراجته البسيطة للعمل صباحاً .. ربما فى قسم الحوادث .. و لكنه لم يرتكب

أى جريمة تستحق سوى أنه دخن مرة واحدة فقط فى شبابه كما حكى لى تحت ضغط زملائه و أقلع بعدها .. لم أجد حلاً و أشفقت أن أرفض طلبه بشكل مباشر فأؤذى مشاعره .. وعدته أن أفكر فى الموضوع .. تهلل وجهه بسعادة و أنصرف و هو يكاد يطير فرحاً

و بالطبع صدر العدد التالى من المجلة و لم تظهر صورته فيه .. جاءنى منكسراً .. أشفقت عليه .. لم أجد عذراً يمكن أن يقبله برضا دون أن أخيب أمله .. أضطررت أن أصارحه برفق و أوضح له صعوبة الموقف .. أخبرته بوضوح أنه لا بد من وجود سبب مقنع لنشر الصورة .. كأن يكون مشهوراً مثلاً .. أو صاحب قضية تهم الرأى العام .. أو حتى صاحب تجارب حياتية مميزة أستطيع نشرها ليستفيد منها القارئ .. عندما أنتهيت من كلامى معه سكت فتحى قليلاً .. فكر لثوان ثم أبتسم و هتف بتلقائية:

-أنشر قصة حياتى أذن

هذه المرة لم أتمالك نفسى فضحكت .. و يبدو أنه فسر ذلك على أنه أستحسان لفكرته .. فبدأ يتكلم عن أحداث من حياته الجوفاء و يستفيض فى رواية ما مر به .. أدركت وقتها أنه لا فائدة من محاولة أقناعه .. جلست على المقعد بأستسلام و أسندت رأسى على يدى أستمع بصبر لحكايته التى يرويها لى للمرة العاشرة

أنتابتنى فكرة وقتها .. لما لا أكتب قصة قصيرة أستلهم أحداثها من واقع حياته و أنشرها فى قسم الأدب .. على الأقل سيفرح بنشر قصة تحكى عنه و لن يعاود التفكير فى موضوع الصورة .. بدأت أنتبه أكثر معه و هو يحكى .. و لكن لخيبة أملى لم أجد أى شئ مميز يمكننى التوقف عنده .. حياة جوفاء .. مثال حى لحياة روتينية .. أرض مسطحة لا أنحناءات فيها و لا أرتفاعات .. أبوه كان ساعى بريد بسيط و توفيت أمه و هو صغير .. لم يتعلم القراءة أو الكتابة .. عمل صبى بائع لفترة طويلة قبل أن يغلق المحل الذى يعمل فيه لوفاة صاحبه فأنتقل للعمل كنادل فى مقهى شعبى .. لم يعجبه العمل فتركه و تنقل فى عدة وظائف بسيطة قبل أن يستقر به المقام للعمل فى جريدتنا .. يقضى طوال فترة الصباح هنا و ينهى عمله مساءاً فيتوجه إلى المقهى ليقضى بعض الوقت مع شلة من جيرانه ثم يعود لمنزله المتواضع و ينام للصباح .. يسهر فقط قليلاً يوم الخميس على المقهى .. و أحياناً يزور قريبة له مسنه تسكن فى مدينة أخرى .. تلك هى حياته تقريباً بدون أختصار .. حياة تسير على قضبان ثابتة كقضبان السكة الحديد .. لم ينحرف يوماً أو يحيد عن الطريق .. يقطع نفس المحطات يومياً .. و ينتهى دائماً عند النقطة التى بدأ منها .. كيف يمكننى أن أضع حياة كتلك فى قصة أدبية مشوقة تثير القارئ .. قصته خالية من أى أحداث مثيرة و محبطة لأى كاتب يود

صياغتها

قاطعت لصديقى : و لكن فى داخل كل منا قصة تستحق النشر .. هذا ما يردده الأدباء..

هز صديقى رأسه ثم قال : كلام نظرى لا ينطبق على الكثير و منهم عم فتحى .. ماذا أكتب عنه .. يستيقظ صباحاً و يقضى اليوم فى العمل ثم يذهب لمنزله للنوم .. حتى أحلامه لم يكن له أحلام أو طموحات كبيرة .. إلا حلمه بالطبع بنشر صورته .. لم يحلم أن يتزوج أو يكون له أولاد لضيق ذات اليد .. و طموحه لا يتعدى أن يحافظ على عمله كفراش .. ليس له مغامرات .. أو حتى مشاريع خاصة يود تنفيذها .. من سيستمتع بقراءة الأحداث كتلك..

على العموم وعدته بأعادة النظر فى الموضوع .. قررت أن أتركه عدة أيام لعله ينسى الأمر و لكن مع مرور الأيام زاد هوسه .. عندما نشرنا العدد التالى و لم يجد صورته جاء ليعاتبنى .. لمحت نظرة أنكسار فى عينيه .. لم أره محبطاً من قبل بهذا الشكل .. و بعد صدور عدد آخر دخل المكتب يحمل القهوة بيد و بيده الأخرى يطبق على نسخة من المجلة .. بسط المجلة أمامى و أشار إلى صورتان لأثنان يبدو من هيئتهما أنهما بسطاء .. سألنى بعتاب لماذا لم أنشر صورته مثلهما فلا يبدو عليهما أنهما من المشاهير أو نجوم المجتمع .. تصفحت المجلة بهدوء .. الصورة الأولى لشخص مريض نشرنا

ألتماس لوزير الصحة لعلاجه فى الخارج و معها صورته .. و الثانى تعرض للنصب فنشرنا قصته حتى نحذر الناس و بالطبع نشرنا صور المقابلة معه بعد أن تطوع بذلك .. حاولت أن اوضح له الأمر و لكن لم يبدو عليه الأقتناع .. لو كان يجيد القراءة لطلبت منه أن يقرأ المجلة ليتاكد من كلامى بدلاً من أن ينصرف و نظرة الشك تلك تظهر فى عينيه بوضوح .. و رغم مرور الأيام و تجاهلى له لم يفقد الأمل .. و عرفت لاحقاً أنه حاول مع عدد من الصحفيين هنا .. و لكنه قوبل بالأستهزاء منهم

مرت سنوات على مجلتنا .. تعرضنا للأغلاق و المصادرة عدة مرات .. و غادر عدد كبير من المحررين و حل محلهم عدد أكبر .. أنتشرنا و توسعنا .. جددنا ديكورات المكتب و غيرنا الأثاث .. أصدرنا المجلة فى البداية شهرياً ثم أسبوعياً .. كل شئ تغير إلا ألحاح عم فتحى .. لم ييأس و ظل يذكرنى بطلبه على فترات متباعدة .. أنتظر دوماً بأمل أن أحقق رجاءه رغم تجاهلى الدائم له الذى أستمر لسنوات .. حتى تفاجئنا ذات صباح بغيابه

لأول مرة من أثنتى عشر عاماً لا يحضر .. لم يغب يوماً من قبل .. أعتاد يومياً أن يكون أول من يصل لمقر المجلة و آخر من يغادر حتى أصبح جزءاً من المكان لا تألفه أعيننا بدونه .. و عندما تواصل غيابه لليوم الثانى أرسلنا مندوباً من المجلة للسؤال عنه .. عرفنا أنه مرض فجأة .. أصيب بألتهاب

رئوى حاد و نقلوه للمستشفى .. لم يكن عم فتحى بالشخص قوى البنيان و لكنه لم يمرض قط .. و كأن الطبيعة أرادت أن تعوضه عن ضعف بنيانه بمناعة قوية ضد المرض .. و لكن مناعته أنهارت فجأة .. زاره بعض المحررين فى المستشفى و كنت أنوى مشاركتهم الزيارة و لكنى أضطررت للسفر لتغطية مؤتمر هام .. أحد الزملاء أتصل بى و أبلغنى أنه سأل عنى و كان يرغب فى رؤيتى فصممت على زيارته بعد أنتهاء المؤتمر .. و لكنه مات بعد عدة أيام .. لم يكن له أقارب هنا فتولت الجريدة كل شئ و دفن فى أحد مقابر الفقراء .. و لأن المصائب لا تأتى فرادى .. صودرت جريدتنا بعد أن نشرنا تحقيقاً فى قضية هامة رغم قرار النائب العام وقتها بحظر النشر فى تلك القضية .. و عندما عاودنا النشر .. كان الوقت قد فات لنشر نعياً له .. مرت سنة الآن منذ وفاته و ترقيت حتى أصبحت رئيس التحرير .. و جئنا بساعى جديد ليحل مكان عم فتحى .. هذه هى حكايته كلها .. كما ترون .. لا أستحق أن أكتب قصة عنها أو تحقيقاً و أنشرها

سكت قليلاً .. سألته بدهشة : و لماذا ظننت إذن أنه هو الطارق ؟

أرتشف قليلاً من كوب القهوة أمامه .. قال كمن يتذكر شيئاً:

نسيت أن أقول لكم .. بعد عدة أيام من وفاة عم فتحى وقعت بضع حوادث غريبة فى المجلة .. أناس تسمع صوت جلبة فى المطبخ رغم أن لا أحد

هناك .. أيضاً الفراش الجديد الذى عمل هنا أخبرنا أنه يلاحظ أصوات قادمة من المكاتب عندما يأتى فى الصباح .. و كأن شخصاً ينظفها.. و عندما يتحقق من الأمر يجد المكاتب خالية .. و بواب العمارة يؤكد أنه يرى أحياناً الأنوار مضاءة لفترات متأخرة فى المساء حيث أعتاد عم فتحى السهر مع بعض المحررين الذين يمكثون لأنجاز أعمالهم المتاخرة رغم أنه لم يعد أحد يفعل ذلك الآن .. و بدأت أسمع صوت طرق على الباب فى نفس الأوقات المنتظمة التى كان يقدم عم فتحى فيها قهوتى المعتادة .. نفس طرقته المميزة على الباب .. كتلك التى سمعتموها .. و عندما أفتح الباب لا أجد أثر لأحد .. و بعض المحررين أيضاً حدث معهم نفس الشئ .. و بالذات القدامى منهم .. و أستمرت هذه الطرقات من يومها حتى الآن .. الغريب أن عم فتحى كان يحتفظ ببضع أعداد من المجلة فى درج خاص داخل المطبخ .. أعداد خاصة ممتلئة بالصور أكثر و منها العدد الأول للجريدة .. و لكنها أختفت كلها رغم أن الفراش الجديد رآها هناك أول يوم أستلم فيه العمل هنا .. و لكنها أختفت بعدها .. كما أن بعض الصور المعلقة على الجدران تحطمت أطارتها .. فلم نعد نعلق أى صور على جدران المكان

توقف صديقى عن الكلام لبرهة .. خيم علينا الصمت .. نظر فى ساعته قائلاً بسرعة : يبدو أن الوقت تأخر .. سأدعوكما للغذاء بمناسبة الترقية ..

نهـض فخرجنـا مـن مكتبـه دون كـلام .. كنـت فـى حالـة صـدمة ممـا سمعت .. سرنا فى الردهة الخاليـة تمامـاً .. يبـدو أن معظـم المحـررين فـى أسـتراحة غـذاء أو أنهـوا عملـهم بالفعـل فالمكـان شـبه خـالى .. أقتربنـا مـن المطبخ .. تسمرت فى مكانى عندما تناهى إلى سمعى صوت قادم من داخلـه .. نظرت لصديقى و لكنه أكمل طريقه بشكل طبيعى فسرت معه .. مع أقترابنـا أزداد الصوت وضوحاً .. صوت مياه تغلى و كأن شخصاً يعـد مـشروباً و معهـا صوت تقليب صفحات .. أشار صديقى إلى كرسى بجوار المطبخ تماماً:

-هنا أعتاد أن يجلس عم فتحى ينتظر أشارة أحد من المـوظفين .. و هنـا المخزن..

ظل صديقى يتكلم و نحن نعبر أمام المطبخ .. لم أنتبه لأى من كلامه لأنـى كنت مشغولاً بمعرفة ما يدور داخل المطبخ .. بمجرد أن أصبحنا أمامـه حتـى ألتفتت ببطء لألقى نظرة سريعة بداخله .. لم يكن هناك أحد .. المكان خـاوى تماماً و الصوت توقف بمجردنا أن عبرنا أمامه .. أقشعر بـدنى .. بمجـرد أن تجاوزنا مدخل المطبخ حتى عاد الصوت مرة أخرى بوضـوح .. سيطرت علـى نفسى بصعوبة .. سرت قشعريرة باردة فـى جـسدى رغمـاً عنـى .. سـرحت قليلاً قبل أن أنتبه على صوت صديقى مكملاً كلامه:

كلما تذكرت عم فتحى شعرت بالشفقة نحوه .. حاولت أن أكتب عنه عدة

مرات و لكنى حتى الآن لم أجد أى شئ مميز فى حياته ..

ثم تنهد و هو يلوح بيديه بيأس قائلاً : ليتنى أجد أى شئ مثير فى قصة حياته لأكتب عنه على الفور

بهجت

فى بداية الثمانينيات لم يكن هناك فى مدينتنا محل أشهر من محل بهجت .. ربما بسبب موقعه الممتاز فى قلب المدينة التجارى أو بسبب ضخامة مساحته .. أعتدت أن أمر عليه عدة مرات فى اليوم الواحد أثناء ذهابى أو عودتى من المدرسة .. أتطلع بأعجاب إلى فاترينته المليئة بكل أشكال الحلوى .. لم أدخل المحل يوماً و لم أرى كثير من الزبائن يتوافدون عليه .. و لكنه يظل واحد من معالم مدينتنا الصغيرة حتى أن المنطقة المحيطة به أصبحت معروفة لدى الناس بأسم المحل .. عندما تمر أحد عربات النقل العام أمام المكان يكفى أن يشير أحد الركاب بأسم " بهجت " ليتوقف السائق هناك .. وعلى الرغم من أن المنطقة مليئة بمحلات أخرى من كل صنف و نوع .. و لكننا لم نعرف للمنطقة هناك أسماً آخرغيره

لم أرى أحد يعمل داخل المحل سوى صاحبه بهجت .. و لبهجت شخصية أكثر شهرة من محله نفسه .. رجل متوسط العمر طويل القامة ذو شعر خفيف بدأ يغزوه اللون الأبيض و عينان يشع منهما بريق ذكاء فطرى ..

ورث أرض كبيرة عن أبيه فى مكان مميز فى قلب المدينة التجارى بالأضافة إلى مزرعة صغيرة .. سافر للعمل فى دولة عربية و عاد بعد عدة سنوات فبنى عمارة أنيقة على الأرض كانت مثار أعجاب الناس وقتها .. لم يكن يحب قيود الوظيفة أو يحتاج إليها .. قرر أن يبدأ مشروعاً فأفتتح محل ضخم للحلويات أسفل منزله و أطلق عليه أسمه .. فى الواقع لم يكن بهجت يهتم بالربح عندما أفتتح مشروعه .. أيراد المزرعة بالأضافة إلى أيراد عمارته الجديدة و ثلاث محلات أخرى صغيرة أسفلها وفر له دخلاً محترماً لم يعد معه بحاجة إلى حسابات الربح و الخسارة .. و لكنه أفتتح المحل ليشغل وقته وعوضاً عن المكوث فى المنزل .. كان أول محل للحلويات الغربية فى مدينتنا التى لم تعتاد سوى الحلويات الشرقية المصنوعة محلياً .. و رغم نصائح أصدقائه و أقاربه بسذاجة أقامة محل كهذا فى مدينتنا ذات الطابع الريفى .. إلا أنه أصر على أستكمال المشروع قائلاً لهم ببساطة أنه لا يريد سوى أن يكون مختلفاً عن غيره ، و لا يسعى سوى لكل ما هو جديد و متميز .. وأفتتح بهجت مشروعه الجديد بالفعل وسط أحتفال و أحتفاء بسيط

فى البداية لم يحقق بهجت نجاحاً يذكر تماماً كما توقع له الكثيرون .. و لكن مع مرورالوقت بدأ المحل يجذب الزبائن .. أناس دفعهم الفضول لتجريب منتج جديد بعيد عن الحلوى التقليدية .. صبر بهجت طويلاً على حلمه .. تطلع برضا إلى عدد الزبائن الذى يزداد يوماً عن يوم و إن كان ما زال

يسير بشكل بطئ .. مرت أسابيع و أشهر .. بعد ثلاث سنوات كاملة بدأ المحل يحقق ربحاً معقولاً بعد أن كان بالكاد يكفى مصاريفه .. كل من كان يلوم بهجت على فكرته الغريبة بدأ يشيد بذكائه و يتحدث عن بعد نظره .. و لكن ما كاد بهجت يلتقط أنفاسه و يحقق ربحاً حتى تفاجئ بأفتتاح محل منافس .. بمجرد أن أنتشرت الحلوى الغربية بين الناس حتى قلده أحد كبار تجار المدينة .. أفتتح محلاً آخر فى مكان مميز و بأسعار أقل .. ثم تبعه تاجر آخر بعده بعام فى مدينة صغيرة لا تتحمل كل هذه المنافسة

أبرز ما فى مدينتنا الصغيرة أن الناس هنا تهوى تقليد كل ناجح .. تخشى من المغامرة و تهرب من الأفكار الجديدة و لكن بمجرد أن يغامر أحد و ينجح حتى يسعى الجميع لتقليده بلا قيود .. و هذا ما عانى منه بهجت

لم يكد يحصد نجاح تجربته التى صابر عليها طويلاً حتى أرهقته المنافسة الشرسة .. لعدة سنوات أخرى ظل بهجت كما هو يتجاهل الوضع الذى يزداد سوءاً .. حتى أبى الذى أعتاد أن يبتاع من عنده بعض الحلوى فى المناسبات توقف بعد أن أكتشف أن هناك محلات أخرى تبيع نفس البضاعة بسعر أقل .. علمت لاحقاً أن بهجت بدأ يخسر من ولديه الذى كان أحدهما صديقاً لى فى المدرسة بينما الآخر يصغرنا بعامين

فى آخر سنوات دراستى الأبتدائية مررت على المحل يوماً لأتفاجئ به

مغلق .. لأول مرة منذ ست سنوات يوصد أبوابه .. بعدها بيومان رأيت بعض العمال يجهزون المحل .. سألت صديقى فأخبرنى أن والده قرر تجديد المحل .. مر شهر و نصف قبل أن يعاد أفتتاح المحل ليتحول إلى مجمع أستهلاكى ضخم .. لم يكن تجديداً كما توقعنا .. بهجت غير نشاطه بالكامل

تحول محل الحلويات بالكامل ليصبح مجمع أستهلاكى ضخم .. كنا فى منتصف الثمانينيات و أعتاد الناس هنا الشراء من الدكاكين الصغيرة .. لأول مرة فى مدينتنا نرى كل تلك البضائع تجتمع تحت سقف واحد .. التجول داخل المحل أصبح متعة فى حد ذاته فهنا تجد كل شئ .. وضح أن بهجت صرف على محله كثيراً لتجديده بل و أضطر إلى توسيعه بعد أن أضاف إليه أحد المحلات الثلاثة الصغيرة بجواره و التى كان يقوم بتأجيرها .. كسب بهجت الرهان و أثبت عبقريته مرة ثانية فى أختيار مشاريعه .. عندما كنت أجئ إلى هنا مع أبى لم أكن أرى بهجت إلا و هو يتنقل من مكان لآخر يشرف على كل شئ بنفسه و أبتسامة ثقة تعلو وجهه .. مرت شهور و بهجت يحصد نجاح مشروعه .. بعدها عرفنا بالمصادفة أن تاجر كبير أفتتح مجمع أستهلاكى جديد فى طرف المدينة .. تبعه ثالث و رابع داخل المدينة!

لم يمر وقت طويل بعد نجاح مشروع بهجت الثانى حتى تم تقليده فكان لدينا أربع مجمعات أستهلاكية ضخمة تزحف على مدينتنا التى لا تستوعب

كل هذا العدد و كـل ذلـك خـلال سـنوات قليلـة فقـط .. سـحبت المجمعـات الجديدة البساط قليلاً من تحت أرجل بهجت خاصة أن أصحابها مـن التجـار الذين يعرفون جيداً كيفية الحـصول علـى البـضائع بـأرخص الأسـعار بينمـا بهجت برغم أفكاره العظيمة لم يكن بتاجر .. بدأ توافـد الزبـائن عليـه يقـل تدريجياً و بدأ يقلل من عماله .. مشروعه الثانى صمد لمدة ست سنوات كاملـة أيضاً قبل أن يحقق خسائر دفعت بهجت للتفكير فى نشاط آخر مختلف

و عاد العمال مرة أخرى .. و بدأت أعمال الأحلال و التجديد التى طالـت هذه المرة لـشهران .. قبـل أن يخـرج المحـل بـشكل جديـد تمامـاً لم تعتـاده مدينتنا المحافظة .. محل فيديو جيم للأطفال

كنا فى بداية التسعينيات يـوم ولادة المحـل الجديـد الـذى لاقـى أقبـالاً شديداً منا حتى أنه فى أوقات الاعياد و المناسبات كان علينا أن نذهب مبكـراً و نحجز قبلها بساعات لنضمن الحصول علـى فرصـة للعـب .. أمـتلأ المحـل بأحدث شاشات الفيديو جيم و لم نعد تسمع هنا سوى صوت طلقات الرصاص أو فرملة السيارات أو تقارع الأسلحة فى الألعاب الوهمية المختلفة .. بـالطبع هاجمه الكثيرون بداعى أنه يفسد أخلاق الأطفال و لكننـا كنـا نـستمتع جـداً بوقتنا هنا .. بهجت نفسه كـان يغلـق محلـه فـى الفـترة الـصباحية بعـد أن حرص عدد كبير من الطلاب على الهروب من مدارسـهم و قـضاء الوقـت فـى

محله .. واظبت علـى المجـئ هنـا بـشكل دورى فـى نـهايـة كـل أسـبوع مـع أصدقائى بعد أن أعتدت أدخار مصروفى لثلاثة أيام كاملة قبلها حتـى أتمكـن من اللعب .. كان ذلك قبل أن يفتتح محل مشابه قريب من المنطقة التى نسكن فيها ففضلنا الذهاب إليه .. هذه المرة و مع بدء أنطلاقنا فى عـصر الـسرعة لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لسرقة فكرة مشروع بهجت الجديد .. بعـد سـنتان أنتشرت محلات الفيديو جيم الصغيرة فى المدينة الضئيلة و لم يلبث بـهجـت أن قرر أغلاق محله كالعادة

أنتظرت – و معـى الكـثير مـن الفـضوليين و التجـار – مـشروع بهجـت الجديد .. فكرته القادمة بعد أن أثبت فى كل مرة قدرته على قراءة الـسوق و الخروج بأفكار مبتكرة غير تقليدية .. لم يحتـاج المحـل هـذه المـرة لتغـيير كبير .. بقيت ديكورات المحل كما هى و لم تتغير سوى اللافتـة لـتعلن عـن ميلاد مكتب بهجت للكتابـة و الطباعـة بـالكمبيوتر .. كنـا قـد أقتربنـا مـن منتصف التسعينيات و ما زالت آلات الطباعة التقليديـة منتـشرة فـى المدينـة العتيقة .. أجتذب المكتب العديد من طلاب الجامعـات بالأضـافة إلى أصـحاب الأعمال و الباحثين .. المكتب الوحيد الذى تجتمع فيه كل الخدمات الحديثة فى مكـان واحـد .. فـاكس و كمبيـوتر و آلات طباعـة حديثـة و هـاتف دولى أيضاً .. بأمكان أى عميل أن يكتب و يطبع هنـا أى أوراق يريـدها بـسرعة ..

وظف بهجت عدداً من السكرتيرات أمتزن بالكتابة بسرعة على الكمبيوتر .. بالأضافة إلى أنشاء قسم خاص داخل المكتب للدعاية و الأعلان بأحدث الوسائل .. أشترى أحدث ماكينات نسخ الأوراق و أفضل آلات الطباعة .. فى الانتخابات التى أقيمت بعدها بسنة كانت معظم اللافتات و أوراق الدعاية المبهرة التى أغرقت المدينة ممهورة بأسم مكتبه .. لفترة لم يستطع أحد تقليد مشروع بهجت خاصة من التجار الكبار الذين كان فهمهم للتكنولوجيا الحديثة محدوداً إلى أبعد حد .. ظننا أن هذا سيكون آخر مشاريع بهجت و يبدو أنه هو نفسه أطمئن لنفس الخاطر فصرف على مكتبه بسخاء .. إلا أن أحد شباب الجامعة المتحمس أعجب بالفكرة .. أتفق مع بعض أصدقائه فقاموا بتأجير مكتبة كبيرة أمام الجامعة مباشرة و أشتروا عدداً من أجهزة الكمبيوتر و عدداً من الطابعات بالتقسيط و بدءوا بالعمل .. خبرتهم فى التعامل مع التكنولوجيا الحديثة فاقت خبرة بهجت بالتأكيد و لم يلبث أن أزدهر عملهم .. بالطبع أجتذب المحل الجديد طلاب الجامعة الذين فضلوه فى النهاية نظراً لقربه من الجامعة ، و بعد المسافة بين وسط البلد حيث محل بهجت و بين كلياتهم .. ثم انتقلت الفكرة لشاب آخر فأفتتح مكتبة آخرى .. كان يمكن لبهجت أن يصمد أمام المنافسة التى ما زالت فى بدايتها و لكنه فضل أن يستسلم بشكل سريع وغير متوقع و أغلق محله بعد أن باع

الأجهزة كلها

تجاوزنا منتصف التسعينيات و أقتربنا من نهاية الألفية .. ألتحقت بالجامعة و بهجت يجدد محله للمرة الخامسة .. هذه المرة لاحظنا أن الفاترينات رجعت لتحتل واجهة المحل .. أيقن الناس أن بهجت سيعود لبيع الحلوى .. نشاطه الأول .. و لكنه فاجئ الناس بعمل أفتتاح ضخم ليعلن أقامة أول محل للهواتف المتحركة .. أتهمه البعض بالجنون و البعض كان رحيماً معه فأكتفى بأتهامه بالسذاجة .. عدد من يحملون الهواتف المتحركة فى بلدنا لم يكن يتعدى أصابع اليدين .. سمعنا كثيراً عن تلك الأجهزة دون أن نراها أو نحلم بأمتلاكها .. فى مدينتنا المعدمة من يقدر على شراء هذا الجهاز باهظ الثمن أو تحمل قيمة مكالماته .. نصف الناس هنا لا يحلمون سوى بأمتلاك هاتف أرضى و ربما أنتظروا لشهور وقتها فى سبيل تحقيق ذلك .. تحمل بهجت لمدة عامين تقريع الناس و الجلوس داخل محله الخاوى تقريباً من الزبائن إلا من قلة معدودة .. تحمل أن يجلس أحياناً يوماً كاملاً دون أن يطالعه وجه زبون حتى بدأت التكنولوجيا الجديدة تغزو العقول قبل السوق .. أنتشر الموبايل تدريجياً فى أيدى الناس بعد عدة عروض من الشركات المتنافسة لتخفيض سعره و أصبح للمحل زبائن .. المحل الوحيد الذى تباع فيه الأجهزة و كروت الشحن و كافة مستلزمات الأختراع

العجيب .. بل و حتى عمل صيانة بعد أن تعلم بهجت كيفية صيانة هذا الجهاز مستغلاً فترة فراغ محله من الزبائن .. و لفترة ليست بالقصيرة حقق بهجت أرباحاً لم يحققها أى مشروع له من قبل ، و ظل محتكراً للسوق الجديدة لفترة لا بأس بها قبل أن يقبل على المجال بعض الشباب المغامر و بعض التجار الكبار الذين أستطاعوا بذكاء الحصول على توكيلات رسمية من شركات المحمول .. أنتشرت المحلات الصغيرة و الكبيرة بعدها كالوباء فى كل أرجاء المدينة و قل عدد زبائنه .. و قبل أن يبدأ بالخسارة قام بهجت بتصفية محله مجدداً

فى بدايات القرن الجديد و مع أولى سنوات الألفية تخرجت من الجامعة و أستلمت أول عمل لى وتحول نشاط بهجت من الهواتف المتحركة إلى بيع و شراء أجهزة الكمبيوتر .. لم أكن أحلم بأمتلاك جهاز كمبيوتر وقتها نظراً لثمنه الغالى و لكن بعد تخرجى بثلاث سنوات أصبح الجهاز فى كل بيت .. تجمع لدى مبلغ من المال فقررت شراء جهاز و كنت قد عزمت على الشراء من بهجت .. و لكن أصدقائى دلونى على محل أفتتح بعده يبيع الأجهزة بسعر أرخص فأشتريت منه

سافرت للعاصمة للعمل و لم أكن أعود إلا فى أجازات قصيرة و لكنها كانت كافية لأتابع محل بهجت يتحول إلى مقهى أنترنت ثم إلى صيدلية

أعشاب و أخيراً إلى توكيل أجهزة تكييف و فى كل مرة يواجه بهجت المتجدد دائماً و الذى يضيق من المنافسة نفس المصير .. يبدأ الفكرة و الشرارة الأولى فى مدينتنا فتنتشر و ينفذها غيره بشكل أفضل بعد أن يتحمل هو خسائر المخاطرة

مع نهاية العقد الأول من الألفية حصلت على عقد عمل فى أحد الدول العربية .. سافرت و شغلتنى دوامة الغربة قبل أن أقرر العودة أنا و زوجتى نهائياً لأستقر فى بلدى بعدها بخمس سنوات .. ذهبت إلى مدينتى و سرت فى شوارعها أتفقد كل ركن فيها و أستعيد ذكرياتى .. قابلت بعض أصدقائى و منهم محمود أبن بهجت الأكبر .. مررنا على محل بهجت الذى كان مغلقاً و قبل أن أسأل محمود عن سر أغلاقه وقع بصرى على لافتة كبيرة مكتوب عليها " الأفتتاح قريباً " فكتمت فضولى منتظراً معرفة أخبار المشروع الجديد فى حينه

وضعت زوجتى طفلنا الأول بعد عودتنا بشهر .. شغلنى قدومه عن الدنيا .. زارنى محمود و تلقيت تهنئته و لكنى نسيت أن أسأله عن مشروع والده .. ذهبت بعدها بعدة أيام لشراء بعض الأغراض من وسط البلد فطالعنى المحل بثوبه الجديد .. لم أصدق .. كان هذا آخر ما أتوقعه .. أعترف أنى توقعت شئ مختلف .. مجال جديد يغزوه بهجت .. أن يبهرنا بفكرة

مبتكـرة كالعـادة .. لكنـى تفاجئـت بـالمنظر .. مجـرد مكتبـة عاديـة لبيـع الكتب .. أرفـف ممتلئـة بكتـب حديثـة و مجلـدات ضخمة و كتـب أطفـال بالأضافة إلى ركن خـاص شـغل نـصف مـساحة المحـل تقريبـاً لبيـع الكتـب المستعملة .. أتذكر أنه كان لدينا فى المدينة قديماً عدد من المكتبات التقليديـة مثلها لبيع الكتب و لكنهـا أغلقـت أبوابهـا مـن فـترة ليـست بالقـصيرة .. و أصبحت الكتب الآن تباع على الأرصفة .. رأيت بهجت بعد أن تعـدى عمـره الستين و هو يجلس بهدوء خلف مكتـب بـسيط تعلـوه بعـض الكتـب يطـالع واحد منها .. عندما قابلت محمـود بعـد عـدة أيـام سألته عـن سـر التغـيير الجديد .. سرد لى بخيبة أمل كيف حاول الكثيرون أقناع والده بالعـدول عـن فكرة المشروع .. بل هاجمه البعض و من بينهم ولديه .. حاولوا أقناعه كثيراً بمدى حماقة الفكرة .. واجهوه بكل الحجج المنطقية .. " تبيع كتـب لنـاس مش لاقيه تاكل " .. " مين اللى بيقرأ دلوقتى فى الزمن ده ، حد عنـده وقـت للقراءه " .. " أقل كتاب جديد تمنه يوكل أسـرة فقـيرة يـومين بحـالهم .. و بعدين الناس دلوقتى بتقدر تنزل من النت أى كتاب و تقـراه بـبلاش .. مـين عنده أستعداد يرمى فلوسه فى شوية ورق " .. " حتى المكتبـات القليلـة اللـى كانت موجودة هنا قفلت من زمان .. و الكتب بتتباع على الأرصفة دلـوقتى و مش لاقية اللى يشتريها"

عرفـت أنـه أسـتمع بـصبر إلى معظـم تلـك التعليقـات و لكنـه أصـر علـى

موقفه .. نفذ فكرته و لم يتراجع دون أن يفهم أحد سر تمسكه بها مما دفع البعض للظن أنه أصابه الخرف بسبب سنه

مرت عشر سنوات .. الآن وصل أبنى الأكبر إلى نهاية مرحلته الأبتدائية .. و أنجبت طفلاً آخر .. بدأ الشيب يغزو رأسى و لم يغير بهجت مشروعه .. أطول مدة لبثها مشروع له .. ما زال محل الكتب كما هو .. المحل الوحيد فى مدينتنا الصغيرة .. عندما تمر عليه ترى رجلاً عجوزاً تعدى السبعين من عمره .. غزا الشيب ما تبقى من شعره .. يرتدى نظارة طبية ذات عدسات سميكة و لكنه ما زال محتفظاً بحيويته .. يجلس بهدوء يومياً أمام أرفف الكتب داخل مكتبته ترتسم على وجهه أبتسامة رضا لا تخطئها العين .. أعتقد أن بهجت أثبت للمرة الأخيرة بعد نظره .. مرت أكثر من عشر سنوات على أفتتاح المكتبة و رغم مرور كل تلك المدة لم يحاول أحد تقليده أو أفتتاح مشروع مشابه له .. ولا أتوقع أن يقلده أحد مستقبلاً .. بضاعته الراكدة عند الناس لا تشجع أحداً على الخوض فى مخاطرة مشابهة .. و برغم أرباحه شبه المعدومة و زبائنه المعدودين الذين يتناقصون سنوياً .. لكن الأمر المؤكد أن بهجت يشعر بالرضا ، و لأول مرة طوال حياته يفتتح مشروعاً لا يزاحمه فيه أحد .. مشروع لم يعد يخشى معه أخيراً من أى تقليد أو منافسة محتملة فى المستقبل

سيد النصاب

جلست مع صديقى على المقهى نتبادل الحديث .. لم أره مـن فـترة نظـراً لسفرى للخارج فطالت جلستنا .. تبادلنا المزاح و لم أسلم من ثرثرته المعتـادة قبل أن يتوقف فجأة عن الكلام .. لاحظت أنه ينظر بأهتمام إلى نقطة ما خلف ظهرى .. ألتفت فوقعت عيناى على رجـل دخـل للمقهـى لتـوه .. رجـل فـى الخمسينات من عمره يرتدى ثياب فاخرة جلس غـير بعيـداً عنـا مـع صـديق ينتظره و طلب شيشة دخنها بهدوء بمجرد أن جاء بها النادل .. لم يكن فـى شكله ما يثير الريبة .. ألتفت لصديقى قائلاً : يبدو أنك تعرفه جيداً

أجابنى بسرعة : نعم .. سيد النصاب .. و من لا يعرفه

سألته مازحاً : سيد النصاب .. و هل هذا لقب أم أسم لعائلته

أجابنى بجد : بل لقبه .. نصب بالفعل على كثير من الناس هنا

تملكتنى الدهشة .. سألته بتعجب : لما لم يلقوا القبض عليه أذن

تنهد قائلاً : ربما لأنه لم ينصب على أحد كما تتخيل

قبل أن أعلق على هذا اللغز قاطعنى صديقى مكملاً كلامه : لو سمعت حكايته لفهمت

لم يوضح الأمر .. تملكنى الفضول فسألته : و ما هى حكايته ؟

سكت قليلاً .. ثم أبتسم قائلاً : حسناً .. سأحكيها لك و لكن لا تواصل النظر خلفك تجاهه بهذا الشكل المثير للريبة

أعتدلت فى مكانى .. أرتشف صديقى من كوب القهوة الموضوع أمامه .. قبل أن يحكى بنبرة هادئة و بصوت تعمد أن لا يكون عالياً:

سيد شخصية عجيبة .. صحيح أنه نصب على كثير من الناس .. و لكنه لم يستولى على نقود أحد .. تلاعب بالقانون و لكن لم يستطع رجال القانون توجيه أى أتهام له .. يمكنك أن تطلق عليه نصاباً .. و لكن أحذر أن يسمعك و إلا قاتلك مستميتاً على شرفه الذى لا يقبل أن يمسه أى أحد

سيد لم يكن مخادعاً .. لم يتورط من قبل فى أى أمور تسئ لسمعته .. و رغم تمتعه بذكاء غير عادى و قدرة هائلة على الأقناع و لكنه لم يستغلها يوماً فى خداع أى شخص .. لم يكن ضميره يسمح له بذلك .. و لكن عندما حاصرته أزمة خانقة .. و أضطرته الظروف للنصب .. قام بالأمر ببراعة يحسد عليها

سيد كان يحلم دوماً بالثراء .. أمتلك العديد من الأفكار الجيدة حقاً التى

فشل فى تنفيذها نظراً لقلـة مـوارده .. قبـل الأزمـة كـان موظفـاً مرموقـاً فـى الخارجية يتمتع بسمعة طيبة .. شخصية مرحة يكتسب علاقات جديدة كـل يوم و يعرض خدماته على الجميع و لا يتأخر عن مساعدة أحـد .. نجـح فـى تكوين دائرة علاقات قوية و ساعد كل من يلجأ إليه .. لم يكن يتقاضى مقابـل فى سبيل خدماته .. مما أتاح له شهرة واسعة فى محيط مدينته .. تقاعد مـن وظيفته مبكراً بعد أن عرض عليـه صـاحب أحـد شـركات المقـاولات الخاصـة وظيفة معه براتب مغرى بعد أن أعجب بذكائه .. لم يفكر كثيراً .. عمل معه لمدة عامان قبل أن تفلس الشركة .. خرج خالى الوفاض و لكن بخبرة جيدة فى السوق و أحلام كبيرة فى رأسه .. لم يستطع العودة إلى وظيفته القديمـة التـى لم تعد ترضى طموحه .. و لم يبحث عـن وظيفـة جديـدة لـن يجـدها بعـد أن تخطى الخمسين .. ظل فترة بلا عمل و لكنه لم يتوقف عـن دراسـة الـسوق و متابعـة أحوالـه .. عنـدما حاصـرته الـديون .. و أوشـك بيتـه القـديم علـى الأنهيار .. لم يجد بداً من تنفيذ فكرة طالما راودته .. فكرة خطط لهـا طـويلاً لتنقله إلى عالم الثراء

أنشئ شركة صغيرة لألحاق العمالة بالخارج مستغلاً شهرته .. بدأ يقبـل كل الطلبات دون طلب نقود من أى عميل .. أستغل صلاته السابقة و نجح فـى توفير فرص عمل بالخارج لبعض من عملائـه بالفعـل .. ممـا زاد مـن شـهرة

مكتبه .. لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى أعلن أنه يريد عمال من جميع التخصصات للعمل فى شركة مقاولات كبرى داخل دولة خليجية برواتب مجزية .. توافد على مكتبه الكثيرون .. كان يقابل كل راغب فى السفر منهم بنفسه .. عمال نجارة .. سباكين .. سائقين .. عمال كهرباء .. نقاشين . وعد الجميع بنفس الشئ .. عقد عمل مغرى براتب يسيل له اللعاب فى دولة عربية غنية لشركة مقاولات كبيرة و لكنها ما زالت تحت التأسيس .. صاحبها خليجى و لديه شركة مقاولات عملاقة تمتلك فروعاً فى كل البلاد العربية و منها فرع هنا .. وعدهم بتوفير العقود خلال أشهر بسيطة بمجرد أنتهاء أجراءات التأسيس للشركة الجديدة .. أوهم الجميع أن الفرص محدودة فى حين أن أعداد المتقدمين كبيرة .. طلب من كل عامل دفع جزء من ثمن العقد مقدماً .. و الأولوية لمن يدفع أولاً .. لم يشكك أحد فى كلامه .. تاريخه معروف و نزاهته ليست محل جدل .. دفع كثير من العمال .. و أعتذر البعض .. و لكى يزيل أى شبهة شك تجاهه من قلوب عملاءه .. وقع أيصالات أمانة مقابل كل مبلغ أستلمه

لا يعلم أحد كم جمع تحديداً .. و لكنه بالتأكيد مبلغ كبير .. باع بيته القديم الآيل للسقوط و كل ممتلكاته قبلها بعدة أسابيع .. و دفع مقدم لقطعة أرض كبيرة فى مكان مميز كان يضعها نصب عينيه من فترة ثم أستكمل شراء

الأرض و سدد باقى ثمنها بعد أن حصل على نقود عملائـه .. و طبعـاً تم كـل هذا فى الخفاء .. قدم بعدها مباشرة على قرض من بنك كبير يعمـل بـه أحـد أقاربه كعضو منتدب .. تمت الموافقة على القرض سريعاً بضمان الأرض التـى تعلو قيمتها يومياً .. و أستغل هو فترة أنتهاء أجراءات القـرض فـى الأتفـاق مع أحد المكاتب الهندسية لتصميم برج أدارى ضـخم .. و أسـتخراج الـرخص اللازمة

هززت رأسى و قاطعت صديقى قائلاً : فهمـت .. أسـتغل بجـشع أحـلام الشباب و العمال البسطاء فى السفر للخارج لتوفير حياة أفضل لهم و لأسرهم ، و جمع منهم النقود ثم ماطلهم .. بنى البرج و باع وحداته ثم صـرف لكـل عامل ما دفعه و أعتذر لهم

أبتسم صديقى قائلاً : لا .. ما حدث أعجب بكثير

كان يمكن أن يتوقـف عنـد هـذا الحـد .. و لكـن الأغـرب هـو مـا حـدث لاحقاً .. أتصل بكل العمـال و حـدد موعـد للقـائهم فـى مكتبـه .. فـى اليـوم المحدد خرج إلـيهم .. تكلـم بهـدوء و ثقـة عـن الكفيـل الـذى بـصدد القيـام بمشروع جديد و لكن هذه المرة داخل البلاد .. مبنى أدارى ضخم تتـولاه فـرع شركته هنا .. أوهمهم أن الكفيل طلـب منـه الأتفـاق معهـم علـى العمـل فـى مشروعه الجديد هنا أولاً .. مجرد فترة أختبار و فرصة عملية للكفيل للحكم

على كفاءة كل عامل قبل سفره للخارج .. فشركاته تتمتـع بـسمعة طيبـة و لا تقبل إلا كل عامل متميز .. و فى النهايـة مـن سينجح فـى الأختبـار يـسافر فوراً .. و من يفشل يعيد إليه نقوده فى الحال .. أبلغهم أنه بالطبع لـن يـتم العمل بدون مقابل .. بل على العكس سيحصل كل عامل علـى أجـر أكـبر مـن أجره المعتاد طوال فترة العمل فى المشروع الجديـد .. و ربمـا يكـسب ضـعف أجره .. و عند الأنتهاء من كلامه أبلغهم أنه ينتظر الرد سريعاً

لم يشكك أحد فى كلامه .. تحمس البعض فوراً .. فى النهاية لن يخـسر أحد فسيعملون براتب كبير .. أكبر مما أعتادوا عليه .. و فرصـة لكـل عامـل لأظهار مدى براعته للكفيل أملاً فى أقتناص فرصة الـسفر .. أنتقـل الحمـاس تدريجياً لباقى العمال أملاً فى أثبات كفـاءتهم و الحـصول علـى العقـد الـذى يترجم كل أحلامهـم .. و لم ينـسحب أى عامـل .. ربمـا لأن أنـسحاب أحـد معناه أعتراف ضمنى أمام الجميع بعدم كفاءته و خوفه من خوض الأختبار .. تم الأمر كما توقـع بعـد أن لعـب بـذكاء علـى الـوتر الحـساس .. وتـر أذكـاء أحلامهم البسيطة .. و لم يضيع هو وقته فواصل أستخراج التـصاريح اللازمـة بالطرق المباشرة و غير المباشرة .. و وفـر كـل المعـدات اللازمـة لمشروعه .. و أتفق قبلها مع الشركة المنفذة على كتمان هوية المالك

و بدأ العمل .. و العمال يبذلون أقصى طاقاتهم .. و يتقاضون أجرهم كاملاً

مضاعفاً أحياناً .. و كل عامل يؤدى بحماس كـبير و يظهـر كـل أمكانياتـه .. وأنتهى الحفر و صب الأساسات فى وقت قياسى .. و بعـد شـهرين بـدأ بـرج كبير فى الظهور للحياة .. و أحـضر سـيد عمـالاً أكثـر .. و وضـع كـل عامـل خبرته و علمه و هو يمنى نفسه بالعقد المغـرى .. حتـى فـى أوقـات الراحـة كانوا يتكلمون عـن حلـم الـسفر و العقـد المنتظـر .. لم يتـأخر عامـل يومـاً أو يتقاعس فى أداء مهامه .. و أظهروا أخلاصـاً لم يظهـروه طـوال عمـرهم .. و خصوصاً أمام المهندس المشرف على المشروع عندما أعتقدوا أنه هو من يراقبهم و يحكم عليهم .. و زاد من حماسهم ظهور سيد فى موقع العمل يوماً بصحبة رجل مسن وقور يرتدى زياً خليجياً و يستقل سيارة فارهة .. و تهامسوا فيما بينهم أنه الكفيل .. و زادت أحلامهم برؤيته

شهور و العمل يستمر ليلاً و نهاراً بلا توقـف .. و أرتفـع الـبرج شـامخاً يبهر الأنظار .. و بدأت رحلة التشطيب و أنتظر الجميع بفارغ الصبر أنتهاء العمل للحصول على العقود .. ثلاث عمال فقـط طـوال فـترة البنـاء أضـطرتهم ظروفهم الخاصة للتراجع عن فكرة السفر .. و دفع سيد لكل منهم نقوده فـى الحال بدون مماطلة .. مما طمأن الجميع على نزاهته

و لأن سيد أجاد أختيار موقع برجه فى مكان مميز فى قلـب المدينـة .. و لأن البناء كان حقاً تحفة معمارية أبدع فيها كل من عمل في بنائه .. فبمجـرد

أن أعلن عن بيع وحداته حتى تسابق الكثيرون للشراء بالرغم من الأسعار الكبيرة التى فرضها .. و بيعت كل وحدات البرج بالكامل فى وقت قصير

و حدث طبعاً ما هو متوقع .. أجتمع بالعمال و أخبرهم أن الكفيل يمر بأزمة مالية و أنه قرر تأجيل أنشاء فرع الشركة الجديد .. أبلغهم بأسفه لأنتهاء الأمور على هذا الحد غير المتوقع .. و أسف الكفيل لأضطراره لألغاء كافة أجراءات التعاقد معهم و التى كان بدأها بالفعل نظراً للظروف الطارئة التى يمر بها و تخرج عن أرادته .. و منح كل عامل مقدم عقده مع وعد خاص بمواصلة سعيه لأيجاد عقود بديلة لهم

وجدت نفسى أسأل صديقى بدهشة : و كيف لم يثور العمال ضده بعد علمهم بحقيقته ؟

أجابنى بسرعة : لم يكونوا على علم وقتها أنه صاحب البرج .. أخفى الأمر عن الجميع حتى عن زوجته و أبناؤه ..

سألته : و النيابة .. قلت لى أنهم لم يجدوا دليلاً ضده

قال بأسف : أجراءاته كلها كانت قانونية .. عندما أفتضح أمره بعد عدة أشهر بأنه هو صاحب البرج تقدم بعض العمال ببلاغ ضده .. و لكن لم يكن هناك ثغرة لأدانته .. أوراق مكتبه لألحاق العمالة بالخارج كانت سليمة .. النقود التى أستلمها من العمال ردها إليهم دون نقص .. و الأيصالات التى

كتبها على نفسه بالطبع أستردها .. حتـى الأرض أثبـت أنـه أشـتراها قبـل الحصول على نقود العمال و هذا هو المهم لأنه نفى عن نفسه أستغلاله لهـذه النقود فى أغراض شخصية .. و البنـاء تم بقـرض البنـك أى أنـه لم يـستخدم نقود عملائه فى مشاريع خاصة يتربح منها

صحت بدهشة : و خداعهم له بأنه ليس صاحب البرج الذى يشيد

أجاب بهدوء : لا يوجد نص فـى القـانون يجـبرأى شـخص علـى أعـلان ممتلكاته لأحد .. إلا لجهات قانونية محددة .. و بالتـالى أخفـاؤة الأمـر عـن العمال ليس بجريمة يحاسب عليها .. كما أن العمال أعترفـوا أنهـم حـصلوا على أجورهم كاملة ، بل و أكثر منها طوال فترة البناء .. أى أنـه لم يـستولى حقوق أى أحد .. و الأدهى أنه أثبت أنه وفر بالفعل لعـدد مـن العمـال عقـود عمل لاحقة .. و هو ما تبين صحته و بالتالى نفى عن نفسه نية النصب .. و لا تنسى أن الخلاف دب بين العمال أنفسهم

سألته : كيف ؟

أجاب : أستطاع أن يسوى أموره جيداً معهم .. قلت لك وفر لاحقـاً لعـدد منهم بالفعل عقود عمل .. ليست مغرية و لكنهم قبلوها .. و منهم من أعطـاه بعـض المـال للتنـازل و تغـيير أقوالـه .. و الـبعض لم يـذهب أصـلاً و نـسى الموضوع .. و كما قلت لك .. الأهم فى الموضوع أنه لم يستولى على نقود أحد ..

حصل فقط على مخالفة لطلبه من العمال مقدم عقود قبل تـوفير فـرص العمـل فالقانون يحرم على مكاتب السفر تحصيل أى نقود من أى عميـل قبـل تـوفير العقد .. و هى مخالفة أدارية .. و لا تهمه لأنه أغلـق المكتـب نهائيـاً بعـدها بفترة .. على العموم هذا ما حدث من سنوات طويلة .. الآن أصـبح مـن كبـار رجال الأعمال فى مدينتنا هنا .. و مشاريعه تتوسع يوماً عن آخر .. و لم يعد للنصب أبداً .. ونسى كثير من الناس بالفعل حكايته .. إلا البعض و منهم أنا

ألتفت و حدقت فى الرجل بغضب .. ضحك صديقى قائلاً : لا تنظر إليـه هكذا .. من يدرى .. ربما فى يوم من الأيام بعد عودتك من الخارج تعمل فـى أحد شركاته .. أسمع أنه يمنح مرتبات جيـدة .. و يـشجع الـشباب و يـؤمن بهم و يمنح مزايا عديدة لمن يعمل معه صعب أن تجدها فى أى مكان آخر.. و لكن أياك وقتها أن تذكره بماضيه

ضحكنا و أنا ألقى نظرة أخيرة إلى الرجل الجالس خلفى يدخن بهدوء

الفهرس